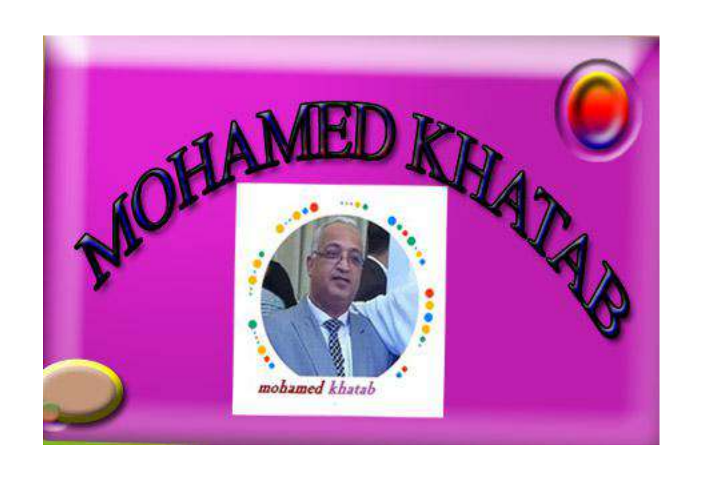




معاذ بني عامر

الإنسان الفيلسوف

عن أسئلة الأطفال وإجابات الحكماء



الإنســـان الفيلســـوف:
عن أسئلــة الأطفــال
وإجابــات الحكمــاء

• **الإنسان الفيلسوف: عن أسئلة الأطفال وإجابات الحكماء**
• **سلسلة الفلسفة للشباب**
• **المؤلف: معاذ بني عامر**
• **الناشر: وزارة الثقافة**

عمان ـ الأردن ـ شارع وصفي التل ـ ص . ب 6140 ـ عمّان

تلفون: 5699054/5696218 ـ فاكس : 5696598 -بريد إلكتروني: info@culture.gov.jo

رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
٢٠٢١/٨/٤٩٢٩

١٠١
بني عامر ، معاذ
الإنسان الفيلسوف: عن أسئلة الأطفال وإجابات الحكماء/
معاذ بني عامر.– عمان وزارة الثقافة، ٢٠٢١.
(١٣٥) ص
ر.أ. ٢٠٢١/٨/٤٩٢٩
الواصفات:/ الفلسفة الإنسانية/ / الفلاسفة/ / نظرية الفلسفة/

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

• **مصمم الغلاف عُبادة الفحماوي**
• **متابعة وتنسيق: فادية نوفل**
• **الإخراج الفني: نسرين العجو.**
• **رقم الردمك** (978 - 9957 - 94 - 689 - 0)

فلسفة

معاذ بني عامر

الإنسـان الفيلسـوف: عن أسئلـة الأطفـال وإجابـات الحكمـاء

2021

المحتوى

في مديح التفلسف

ينقسم كتابي (**الإنسان الفيلسوف: عن أسئلة الأطفال وإجابات الحكماء**) إلى أربعة فصول:

الأول موسوم بـ (**الطفل بما هو أقل من فيلسوف**).

الثاني موسوم بـ (**الإنسان الفيلسوف**).

الثالث موسوم بـ (**الفيلسوف**).

الرابع موسوم بـ (**الحكيم بما هو أكثر من فيلسوف**).

ومقدّمة فصلّت فيها للفرق بين **الفلسفة والتفلسف**، لناحية أنّ الفلسفة تُحْضر الماضي العريق (إلى عقل الإنسان)، والتفلسف يُحضِّر المُستقبل المنَشود (في عقله). مع ما يستلزمه هذا الحضور والتحضير من تقديم لـ الفاهمة بما هي إعمال للعقل في مادة العالَم، وتأخير لـ الذاكرة بما هي مُراكمة للمعرفة داخل العقل. لذا فإنّ أطروحة هذا الكتاب تنحاز للتفلسف على حساب الفلسفة، لما لذلك من أهمية كبرى في تنشيط عقل الإنسان وجعله صاحب موقف من العالَم

الذي يعيش فيه. فالتفلسف يمنحه أفقًا ليكون حُرًّا أكثر.

أما عن الفصل الأول من هذا الكتاب (الطفل بما هو أقل من فيلسوف) فإني مدين في بلورة سياقاته إلى الطفلة «حلا ربيع ربيع»[1]. ففي العام 2013 عندما كان عُمر حلا لا يتجاوز الأربع سنوات (من مواليد العام 2009) كُنتُ استمع إلى أسئلتها بشغفٍ كبير، فقد كانت ـ أعني تلك الأسئلة ـ على قدرٍ كبير من النباهة والذكاء والتبصّر العميق؛ وبقدر نباهتها وذكائها كانت مُضحكة أيضًا وباعثة إلى الفرح. فكيف لطفلةٍ صغيرة أن تطرح أسئلة حول الدِّين والعلاقات الناظمة للمجتمع بهذا الحجم الكبير، والتي يمكن للمرء أنْ يقضي سنوات طويلة لكي يُجيب على سؤال واحدٍ من تلك الأسئلة الجريئة. من يومها بزغت فكرة الطفل المُتفلسف في رأسي، إذ درج في أذهاننا أنّ الفلسفة تنطوي على لُغز معرفي مُستغلق ولا يمكن أن يفهمه فهماً حقيقيًا إلا مَنْ كان راسخًا في العُمر والوقار والمعرفة!

أسئلة «حلا» كانت أسئلة لحظية، مُثيرة، مُدهشة، تنبثق فجأة فتُحقّق في الذهن لذة فجائية، صادمة، لكن سُرعان ما تتوقف عن طرح أسئلتها وتعود لأمورها الثانية، لألعابها، لشقاوتها،

ولتصرفاتها العابثة. هذه الانبثاقة الفُجائية وما يستتبعها من توقّفٍ فجائي، جعلني أعيد صياغة عنوان (**الطفل الفيلسوف**) واصطلحُ على عنوان (**الطفل بما هو أقل من فيلسوف**) بما هو أكثر استلهامًا وتمثّلًا لولادة الإنسان ولادة واعية في الزمن التي ستبزغ تباعًا في متن هذا الكتاب. فالسؤال خطوة هامة في رحلة البحث عن حقيقة الأشياء وجوهرها العميق، لكن السؤال يتعرّض للبتر بشكلٍ فُجائي كما ينبثق بشكلٍ فجائي أيضًا. هذا التأرجح الذهني نوعٌ من التبصّر العفوي يشفّ عن شغفٍ إنساني عارم بالمعرفة، لكنه شغف كامن، مُتوارٍ، مطمور، شغف إمكاني بما يجعله بحاجةٍ إلى مزيدٍ من الدربة والمران بشكل دائم لكي يتحقّق في العالَم، وإلا بقي في طورٍ غير ناضج. لذا فإنّ أسئلة «حلا» ـ بما هي مُمثلة لكلّ طفلٍ على وجه الأرض ـ هي خطوة أولى في رحلة التفلسف الإنساني، ستكون بحاجةٍ إلى مزيد من الخطوات لكي تبقى في حركةٍ دائمة تنسجم مع طبيعة المعرفة الإنسانية المُتدفقة على الدوام.

تاريخيًا، حظيت الفلسفة بنوعٍ من الوقار والسمو، إلى درجة ترسّخ الكثير من الصور النمطية عن الفلسفة والفلاسفة، وتوارثها جيلًا إثر جيل بين الناس. فالفلسفة أشبه بالطلاسم والسحر والفلاسفة أشبه بالمجانين أو هُم في طريقهم إلى الجنون وفقًا لأعراف

الناس، فهم إما بجماجم كبيرة أو بملامح حديدية وقاسية، حتى أن طُرفة تروى عن إيمانويل كانط Immanuel Kant أنه أحب فتاتين لكن الوقت كان قد فاته ساعة قرّر الارتباط بهما! «أعرف فتاتين ـ يكتب أحد تلامذة كانط ـ كانتا تناسبانه تماماً، وبالفعل مالَ إليهما الواحدة بعد الأخرى. ولكنه لم يعد حينئذ في السن التي يستطيع فيها الاختيار أو أخذ القرار بسرعة. تأخر، ثم تردد، وبعدها غادرت إحداهن المدينة، فيما تزوجت الأخرى من رجل صرّح لها عن رغبته بأسرع ممَّ لم يفعل كانط»[2]

أسئلة الأطفال نوع من الإهانة اللذيذة لهذا التاريخ الوقاري، البروتوكولي، البطريركي، حتّ وتعرية لهذا الاسمنت المُسلّح. فـ «حلا» الصغيرة، الوديعة إذ كانت تسأل أسئلتها العبقرية وهي تلعب بشَعرها السارح في الهواء أو وهي تتقافز على الكنب؛ كانت تُوجّه إهانات لذيذة للتاريخ الوقاري للفلسفة. فإذا كانت الفلسفة قمة العقلانية، فإن أسئلة «حلا» كانت بمثابة الجنون على طريقة روجيه غارودي[3] Roger Garaudy إذ وصف الجنون بأنه «الملح الذي يمنع العقل من التلف».

اليوم أصبحت «حلا» طفلة كبيرة، فهي الآن في الصف السادس

الابتدائي، ومسألة تجويد أسئلتها ـ وأسئلة مُجايليها بما هي حالة إنابية عن كل الأطفال ـ وإدخالها في تمرين ذهني طويل، يُفضي إلى تمتين ولادتها الواعية في الزمن واتخاذها موقفًا فلسفيًا من العالَم الذي تعيش فيه؛ رهنٌ بعدّة عوامل أتيتُ على ذكرها في الفصل الأول من هذا الكتاب (**الطفل بما هو أقل من فيلسوف**).

وبالنسبة إلى الفصل الثاني الموسوم بـ (الإنسان الفيسلوف) فإني مدين في بلورة سياقاته إلى جُملةٍ من المقالات كُنت قد كتبتها في فتراتٍ سابقة من أبرزها: (مراتب الدهشة الإنسانية) و(قلوب الأطفال وعقول الفلاسفة)... إلخ[4]. فالإمكان الذي ينطوي عليه الطفل في أن يكون مُتفلسفًا في المستقبل يمكن تعميمه ليشمل كُل الناس؛ الأطباء والمهندسين والنجّارين والممثلين والفنانين والروائيين والقُصّاص والشُعراء والعُمّال والحرفيين وشرطة المرور ومُحصلّي الضرائب... إلخ. كانت المقالات مُفرّقة لكن ثمة خيط ناظم بينها في العموم، لناحية تعميمها للفكرة الفلسفية على الناس أجمعين، وعدم احتكارها من قبل فئة بعينها. مع ما يستلزمه هذا التعميم من تدريبٍ مُخْلِص وطويل للعقل، فالنجّار يُمكنه أنْ يرتقي بمشروعه التجاري ويُحوّلَ ألواحَ الخشب بين يديه التي يصنع منها الأبواب والخزائن

والأدراج والألعاب إلى حالةٍ إبداعية تتجاوز مرحلة القصّ واللصق، إلى ما هو أعمق معرفيًا وأبهى جماليًا. والموسيقي يُمكنه أن يُحوّل النوتات بين أيدي العازفين إلى مقطوعة ثرية بالدلالات والمعاني والانزياحات المعرفية والجمالية..إلخ، إلى أن تتحقّق فكرة (**الإنسان الفيسلوف**) لدى الجميع.

في مقالة (مراتب الدهشة الإنسانية) تحدثتُ عن **ثلاثة أنواع من الدهشة** برسم الإنسان على الإطلاق: **1- دهشة بالفطرة. 2- دهشة بالقلب. 3- دهشة بالعقل.** في الدهشة الأولى (= دهشة الفطرة) يشترك الإنسان مع بقية الكائنات البشرية في مُعاينة تمظهرات الكون الجميلة كما هي موجودة في العالَم بدون معالجات ذاتية، فأمام منظر جميل قد يتساوى النجّار مع الفيلسوف. وفي الدهشة الثانية (= دهشة القلب) يشترك الذكر مع الأنثى في إبراز قيمة الحياة المشتركة بينهما، فالحياة لا يمكن لها أن تكتمل بدون الشرارة الإيجابية بين الذكر والأنثى سواء بسواء، فتلاقي شرارتيهما ضرورة قصوى لتدفق النسل الإنساني والشروع في بناء معمار الحضارة الإنسانية. وفي الدهشة الثالثة (= دهشة العقل) يتمايز الإنسان عن بقية البشر، فهو بإزاء مهمة إبداعية لا يمكن لأحدٍ في العالَم أنْ يُنيبَ عنه في إبداعها. وفي هذا المقام، مقام الدهشة العقلية يمكن للإنسان ـ أيًّا

كانت صفته الاعتبارية ـ أنْ يُبدعَ ويُساهمَ مُساهمةً إيجابيةً في المشروع الحضاري.

وستكتمل هذه الرؤية في مقالة **(قلوب الأطفال وعقول الفلاسفة)** إذ ناقشتُ فيها قصة (الكُل ملوك) للكاتبة الألمانية «ليندا فون كيزر لينك» الواردة في مجموعتها القصصية (العالَم من خلال قلوبهم)[5]

تكتب «ليندا» في مقطع من مقاطع قصتها:

«وبعد وفاة الملك، أصبحت البلدة الصغيرة كلها ملوك؛ الكل يرتدي تاج الملك، وأصبح الشعب سعيداً يأكل ويشرب ويمرح ويرقص وينام سعيداً، ويستيقظ من نومه متأخراً. ولكن في اليوم الثالث، لم يجدوا جميعاً لبناً لكي يشربوه، أو يخلطوه على القهوة، ولم يجدوا كريمة للجاتوه، كما لم يجدوا زبادي للإفطار. الأبقار راحت تخور لأنها تقف في الحقل منذ ثلاثة أيام ولا تجد من يحلبها. عند ذلك، اجتمع الملوك وقالوا: ماذا نفعل الآن؟ فأجاب اثنان من الملوك وقالا: نحن سنقوم بحلب الأبقار، وقالت اثنتان من الملكات: ونحن سوف نقوم بعمل الزبادي والكريمة، وتنفس باقي الملوك الصعداء...»

ثم تُضيف:

«في كل مساء، اجتمعت الملكات والملوك، وقاموا بتنظيف تاجه من الحليب والدقيق، وريش الدجاج، ثم قاموا بالرقص والمرح، وحكموا أنفسهم بأنفسهم، وناموا في الصباح حتى العاشرة. أيها الأطفال، إذا رأيتم في أحد الأيام خبازاً أو خياطاً أو مهندساً، ولكنه يُسمى بالملك فإنكم تعلمون من هو!!»

وقد كُنتُ قد ركّزت في تحليلي لهذا النصّ الفذّ على عدّة نقاط كان أبرزها، مُتعلق بالمنحى الفلسفي للإنسان طالما هو يُؤدّي الدور المنوط به في هذه الحياة بإتقانٍ وتفانٍ وإخلاص باعث على الخيرية، فكما جاء في الأمثال الشعبية: «الحجر في مكانه قنطار». فأيّ حجر صغير ـ أخذ منحى أفقيًا أم عموديًا ـ في البناء الكبير هو حجر على غاية من الأهمية، ولا يمكن لحجرٍ أن ينوب عن حجر آخر في المكان والزمان. وهكذا، فالمنزع الإبداعي إذ يبزغ فإنّ الإنسان فيلسوف ضرورةً، أيًّا كان الدور الذي يُؤدّيه في هذه الحياة، فالراقص والفنّان والمعماري والمهندس وشرطي المرور والمذيع والمُبرمج وعامل النظافة والشاعر والروائي والصيدلاني والطبيب شُركاء في اثنتين:

1- الإنسانية إذ يسيرون بشكلٍ أفقي إلى جانب بعضهم البعض دون

تمييز أو تمايز. 2- التفلسف إذ يتناوبون بشكل عمودي لبناء هرم الحضارة الإنسانية، كُلّ حسب تخصّصه وبقدر اجتهاده العقلي.

أما بالنسبة للفصل الثالث (الفيلسوف) فإنّ بلورة سياقاته ضمن هذا الكتاب تعود في جذورها إلى **كتابي (التفلسف الحضاري: إعادة إنتاج العالَم)** الذي اشتغلُ على أطروحته منذ سنوات وما زال هذا الاشتغال قائماً حتى اللحظة، نظرًا للجهد الكبير المطلوب لإنجازه. فهو كتاب يقرأ دور الفيلسوف في العالَم. كيف يُولد وكيف يموت، وبين ولادته وموته أيّ دور يضطلع به على المستوى الحضاري؟ ففي هذا الكتاب ـ أعني كتاب التفلسف الحضاري: إعادة إنتاج العالم ـ الذي تظهر بواكيره في فصل **(الفيلسوف)** من هذا الكتاب، بسطٌ للعلاقة الوطيدة بين الفيلسوف وثُلاثية: 1- الإله. 2- الإنسان. 3- العالَم. ودوره الرئيسي في تأويل تلك الثُلاثية العريقة في الوجود الإنساني، عبر منحها مفاهيمية معرفية جديدة، غير تلك التي تكون قائمة وفاعلة في عقول الناس ووجدانياتهم. فالفيلسوف «نقطة بدء وانتهاء» معًا وفقًا لتعبير أوغست كونت Auguste Comte(6) بدء وانطلاق لعصر تأويلي يجترح نسقًا معرفيًا جديدًا يُعيد مَفْهَمَة ثُلاثية: 1- الإله. 2- الإنسان. 3- العالَم، وتدويرها في الأذهان أولًا والأعيان لاحقًا، أي بما هو عصر يُعيد توليد الوجود من جديد في المستقبل،

لكن بأثر ماضوي، أي منذ اللحظة التي وُلِدَ فيه الفيلسوف، إذ تشتغل حيوات عقول كثيرة لنقل أطروحة الفيلسوف من مرحلة التأويل إلى مرحلة الإنتاج. كذلك الفيلسوف قطع وانتهاء لعصرٍ هُويّاتي خَتَمَ معارفه وأغلقها حول ثُلاثية: 1- الإله. 2- الإنسان. 3- العالم. وأحكم قبضته الحديدية عليها فراقب: 1- الأفكار. 2- الأشخاص. 3- الأشياء، لكي لا تخرج أي من نتاجاتها عمّا قرّ هُويّاتيًا حول الإله والإنسان والعالَم، لذا يأتي الفيلسوف فيقطع هذا العصر الهووي المُغلق ويفتحه عن آخره، لكي تتنفس الأمة مرة أخرى على المستوى الحضاري.

أما بالنسبة للفصل الرابع (الحكيم بما هو أكثر من فيلسوف) فإنّي مدين في بلورة سياقاته إلى خالي «إبراهيم الموسى» [مات سنة 1995م] وكبير الرهبان البوذيين في اليابان «شونميو ماسونو» صاحب كتاب (فن الحياة البسيطة)(7)

عندما قرأتُ كتاب (فن الحياة البسيطة) تذكرتُ خالي إبراهيم الموسى الذي كان يُراقب ـ بصبرٍ نافذ ولزمن طويل ـ حماره وهو يأكل الأعشاب في البريّة، لكي يتعرّف على أنواع الأعشاب التي يُفضّلها حماره، بحيث يأخذه دائمًا إلى المناطق التي تتواجد بها تلك

الأعشاب أكثر من غيرها، فيُسعد حماره وهو يحصل على مراده من العشب اللذيذ.

للوهلة الأولى يبدو كتاب (فن الحياة البسيطة) كتابًا مُسطّحًا يُمرّر مقولات فارغة تُدغدغ مشاعر إنسان الحداثة المأزوم، إذ يشي عنوانه بسذاجةٍ تنطوي على ضحكٍ على عقول الناس. لكن أن يكون الكتاب عن أشياء بسيطة في الحياة الواقعية عقب تجربة كبيرة على المستوى الذهني، فذلك «انحراف حاد»[8] في مجال الرؤية التي يقوم عليها الكتاب. إنه انتقال من كُبريات العالَم إلى صُغريات الذات أو انتقال من ناطحات السحاب إلى الحصى الصغيرة. فالبسيط بمعناه الفلسفي العميق، هو ما لا يقبل القسمة على شيء، أي أنه مُكْتَفٍ بذاته.

إنّ الشذرات الصغيرة في كتاب (فن الحياة البسيطة) هي خُلاصات لتجربة كبيرة في الحياة، على المستويين الذهني والواقعي. تبادلٌ للأدوار بين المقولات الكبرى كما قرّت في الأذهان والتفاصيل الصغرى كما تتجلى في الأعيان. أو ما أُطْلِق عليه عادة: **تكوين رؤى كبرى (من) تفاصيل صغرى، وتكوين رؤى كبرى (عن) تفاصيل صغرى.**

كتاب (فن الحياة البسيطة) ومُراقبة خالي «إبراهيم الموسى» لحماره تمرينان هائلان على الحكمة الإنسانية بما هي أرقى مرحلة من مراحل التطوّر الإنساني المنشود، ففي اللحظة القصوى لا بُدّ للأعماق الراسخة أنْ تتجلّى في الذُرى العالية، لا بُدّ للحجارة الصغيرة أن تبني ناطحة سحاب ويسكن صاحبها في أعلى بقعة في العالَم الخيّر، الطيب، المُفعم بالإنسانية. إنَّ إطعام قطة شاردة والإشفاق عليها للحظة عابرة أو مساعدة كبير في السِنِّ على قطع الشارع أو التقاط صورة مع لاجئ تُقدّم له المساعدة، عمل قد يتأتّى حتى لأعتى المجرمين، لكن مراقبة حمار لسنواتٍ طويلةٍ لغاية إسعاده وإدخال السرور إلى بطنه، أو الاستيقاظ باكرًا لمدةٍ أربعين عامًا لغاية مُراقبة شروق الشمس والتلذّذ بهذه النعماء الهائلة، فتلك أعمال بطولية لا تتأتّى إلا لقلةٍ من الناس؛ أناس حالت الحياة ـ من صُغرياتها إلى كُبرياتها ـ بين أيديهم إلى دهشة مُطْلَقة.

إذًا، كتاب (**الإنسان الفيلسوف: عن أسئلة الأطفال وإجابات الحكماء**) مُقسّم إلى أربعة فصول: **1- الطفل بما هو أقل من فيلسوف. 2- الإنسان الفيسلوف. 3- الفيلسوف. 4- الحكيم بما هو أكثر من فيلسوف.** ولو تخيلنا إنسانًا مُقسَّما إلى أربعة أقسام بشكلٍ أفقي يمكننا أن نتخيله وفقًا للتقسيم أعلاه، **فالإنسان ذاته: طفلٌ برسم**

أن يكون فيلسوفًا يُجري تمرينات معرفية طويلة، وإنسان فيسلوف يُبدع في المجال الذي قرّر أن يختصّ به، وفيلسوف ـ إنْ أراد أن يُوغل في المعرفة أكثر ـ أخذ على عاتقه إعادة تأويل العالَم، وحكيم انتقل إلى حالةٍ من حالات الخلاص الفردي، بعد أن تحقّق لزمن طويل في الخُلاصات المعرفية.

القسم الخامس من هذا الكتاب؛ قسم برسم القارئ، من ناحيتين:

الأولى: من داخل النص، لناحية تمثّل الرباعية السابقة على المستوى التطبيقي، إذ يمكن للقارئ أن يكون طفلًا مُتفلسفًا ـ حتى وهو كبير في العُمر ـ ويمكنه أن يكون إنسانًا فيسلوفًا مهما كانت صفته الاعتبارية في هذه الحياة، طالما هي صفة تنتصر للحق والخير والجمال. ويمكنه أن يكون فيلسوفًا إذا أرادَ حصر وظيفته الاعتبارية بفيلسوفٍ يُعيد تأويل العالَم. ويمكنه أيضًا أنْ يكونَ حكيمًا، فتنطوي حياته على معنى خاصٍّ به تحديدًا، حتى ولو لم تصل آثار حكمته إلى الآخرين.

الثاني: من خارج النصّ، لناحية عدم تمثّل الرباعية السابقة على المستوى التطبيقي، والإبقاء على فهمها على المستوى الذهني، بما

يتطلب بعض المُكابدات المعرفية من قبل القارئ. وهذه المُكابدات لن تفيد القارئ فحسب، بل والكاتب أيضًا، فثمة وعي مُسْبَق بالنقص الحادث في أيّ نصٍّ مكتوب، لذا يصير الاشتغال على ترميمه وإصلاح أعطابه جزءاً من مشروع التفلسف الإنساني في هذا العالَم. فتمثّل بعض الصعوبات في الكتاب ومحاولة تذليل تلك الصعوبات عبر بحث وتقصٍّ معرفي، جزء من مهمة الكتاب خارج ما هو مكتوب في هذا الكتاب وترميمٌ له بطريقةٍ أو بأخرى. فإذا وجد القارئ صعوبة في الفهم هنا أو هناك وعمل على توضيحها فهذا جزء من رسالة الكتاب، وإذا وجد القارئ استسهالاً لموضوع معرفي كبير في هذا الكتاب وعمل على الارتقاء بهذا الاستسهال ونقله إلى مدار الاستشكال فهذا جزء من رسالة الكتاب أيضًا.

فهو كتاب يُؤمن بشراكتين ضرورتين بين الكاتب والقارئ:

الشراكة الذهنية بما هي منزع إنساني عظيم ستؤتي أُكلها ولو بعد حين، فنحن إذ ننقد طروحات الآخرين: نُرمّم أعطابها ونُكمل نقوصاتها ونُسهّل صعوباتها ونستشكل السهل منها؛ فإننا نُساهم في تأمين نوع من المعونة المعرفية ـ عبر مكابدات معرفية تُنصف الآخرين قبل الذات ـ للأجيال القادمة لكي تتجاوز ما تُعاني منه

الأجيال الحالية. فالقارئ جزءٌ مُتمّم لشراكةٍ ذهنية مع الكاتب؛ القارئ يُعيد صياغة الكتاب بأثرٍ رجعي والكاتب يصوغ الكتاب بأثرٍ مستقبلي.

والشراكة التطبيقية لما للتفاعل الذهني الإيجابي بين الكاتب والقارئ، من دور فاعل في تحرير المجال العام من الإكراهات والاستلابات التي قد تُفضي إلى إنتاج أجيال مريضة نفسيًا، تُهلوس بحقائق ثابتة ومُطْلَقة تُدمّر أي مسلك إبداعي في هذه الحياة.

هوامش في مديح التفلسف:

1- ربيع ربيع أستاذ النقد الأدبي في جامعة جرش/ الأردن. صدر له كتاب (القبيلة والنص: تحولات البداوة في الرواية العربية) عن وزارة الثقافة الأردنية 2018. ومجموعة قصصية موسومة بـ(الذاكرة لا تعشق) الصادرة عن دار أزمنة، عمّان، الأردن، 2011.

2- ماري لومونييه وأود لانسولان، الفلاسفة والحب: من سقراط إلى جان بول سارتر، ترجمة دينا مندور، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2015، ص 107.

3- روجيه غاروديRoger Garaudy كاتب فرنسي تنقّل بين عدّة تجارب فكرية، حتى انتهى به المطاف إلى اعتناق الإسلام. تُرجمت كثير من كتبه للعربية، لكن كان لكتابه: الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية الأثر البالغ في انتشاره عربيًا، لكن يبقى كتابه (في سبيل حوار الحضارات) كتابًا مائزًا لانطوائه على بُعد إنساني قلّ نظيره بين كتبه الأخرى.

4- من ضمن المقالات أيضًا: (الإنسان الفيسلوف) و(المرأة والصوفي والفيلسوف: عن الجسد المُنهك والعقل المُنتهك) و (قلب الطفل وعقل الناقد)...إلخ.

5- يمكن الرجوع إلى المجموعة القصصية (العالم من خلال قلوبهم) لـ «ليندا فون كيزر لينك» الصادرة عن المركز القومي للترجمة في القاهرة من إنجاز أشرف نادي أحمد، العام 2010م.

6- أوغست كونت Auguste Comte مفكر فرنسي أحد المُساهمين في تطوير مفاهيم علم الاجتماع الحديث. للتعرف أكثر على أطروحته في الفلسفة الوضعية يُمكن الرجوع إلى كتابه (دروس في الفلسفة الوضعية) بترجمة لـ نبيل أبو صعب ومنصور الحجلي.

7- ثمة ترجمة عربية لكتاب (فن الحياة البسيطة) لـ «شونميو ماسونو» من إنجاز إيهاب عبد الحميد، الصادرة عن دار التنوير ومنشورات الرمل العام 2019م.

8- جملة «انحراف حاد» هي عنوان رواية مميزة للروائي المصري «أشرف الخمايسي».

المقدمة

بمعنى من المعاني الفلسفة تموقع في تاريخها، حتى مع التعريف بأنها: «لفظ يوناني وأصله فيلا ـ صوفيا، أي محبة الحكمة»[1] أو مع التعريف بـ«أنها العلم بالأسباب القصوى وفقًا لتعريف أرسطو أو أنها الوقوف على حقائق الأشياء كلها على قدر ما يمكن الإنسان أن يقف عليه، وفقًا لتعريف ابن سينا»[2] على اعتبار أن التعريف الأول لها، أعني تعريف حُبّ الحكمة هو تعريف فضفاض بعض الشيء ويحتاج لزمن طويل وتراكم في خبرات الإنسان لتبصّر معناه الحقيقي، وهذا ما سأعمل على مناقشته في فصل (**الحكيم بما هو أكثر من فيلسوف**). والتعريف الثاني لها، أعني تعريف العلم بالأسباب القصوى، هو من اختصاص الفيلسوف. على اعتبار أن الوصول إلى المبادئ الأصلية أو الأسباب القصوى التي يقوم عليها معمار هذا العالَم، تحتاج إلى جهدٍ معرفي كبير قد يستعصي على غالبية الناس أو قد يتعبون في رحلة المسير للوصول إلى تلك الأسباب أو قد يخافون من محيطهم الاجتماعي والسياسي أو قد يُصيبهم التُقى لأسبابٍ عقدية أو آيديولوجية أو قد تنتهي

غرضية أدواتهم المعرفية قبل الوصول إلى تلك الذُرى العالية أو قد يتراجعون لمشقّة المسير، وهذا ما سأبسط لنواظمه الرئيسية في فصل (**الفيلسوف**).

حتى بوجود التعريفين السابقين للفلسفة، يمكن للمرء أن يتعلّم الفلسفة لكنه قد يكون غير قادرٍ على التفلسف. أيّ أنّ المرء قد تُوصله خُلاصاته المعرفية إلى نوعٍ من الخَلاص الفردي، وقد يتوصل إلى معرفة الأسباب القصوى التي يقوم عليها معمار هذا العالَم؛ إلا أنه قد يكون غير قادرٍ على أنْ يتفلسف أو يستخدم عقله استخدامًا إيجابيًا في التعامل مع هذه الأسباب، حتى في حال معرفته لها. لذا فإنّ هذا الكتاب ينحاز للتفلسف بما هو تحضيرٌ (في العقل) لما تمَّ إحضاره (إلى العقل).

إنّ الفلسفة تُحضِر الماضي العريق (إلى عقل الإنسان)، والتفلسف يُحضِّر ما حضر إلى عقله (في عقله). فالعقل إذ يتفلسف فإنه فاعلٌ في الزمن على الإطلاق، لذا فإنّ الكتاب ينحاز للتفلسف أكثر من انحيازه للفلسفة مع عدم إهمال الأهمية الكبرى للفلسفة. **فاستحضار التاريخ الفلسفي عمل مهم، لكن:-1 تفكيك هذا التاريخ ومراجعته مراجعة نقدية. -2 تجاوزه بابتكار نماذج فلسفية جديدة، عمل أهم**. فقراءة موسوعة (تاريخ الفلسفة) لـ

فردريك كوبلستون Fredrick Charles Copleston[3] أو قراءة موسوعة (تاريخ الفلسفة) لـ إميل برهيية Emile Brehier[4] عمل مهم، لكن قراءة كتاب (تحقيق في الذهن البشري) لـ ديفيد هيوم David Hume[5] أو قراءة كتاب (العقل والمادة: بحث فلسفي) لـ ماريو بونجي Mario Bunge[6] عمل أهم. نظرًا لانطواء عملية القراءة الثانية أو قراءة الأعمال الفلسفية على آليات داخلية تُعْلي من شأن العقل وتُحرّره من مُجرّدٍ كونه مُتلقٍ للنصوص إلى مُحفزّة له على تنشيط عقله، أو من مُجرد كونه خزّانًا للحفظ، إلى مَعْمَلٍ لإعادة إنتاج ما تمّ تخزينه في عقله.

لكن أليسَ التأريخ للفلسفة هو تأريخ للأفكار الفلسفية؟ فالمرء ساعة يقرأ الموسوعة الفلسفية فإنه يقرأ تاريخ الأفكار الفلسفية؟ بلى. فـ جاستين غاردر Jostein Gaarder [7] إذ يسرد بطريقةٍ أدبيةٍ مُختصرة تاريخ الفلسفة في روايته (عالم صوفي) وول دورانت William James Durant [8] إذ يسرد هو الآخر تاريخ الفلسفة في كتابه (قصة الفلسفة)، فإنهما يُعزّزان ذاكرة القارئ بنماذج فلسفية عديدة وكثيرة. أما كتاب (حديث الطريقة) لـ رينيه ديكارت [9] Rene Descartes أو كتاب (رسالة في اللاهوت والسياسة) لـ باروخ اسبينوزا Baruch Spinoza[10] تعزيز للفاهمة والعقل الناقد، إذ

يُفكّكان المقولات الكبيرة أو النواظم الأساسية التي يقوم عليها معمار هذا العالَم، وهذا دافع رئيسي للقارئ أن يُعمل عقله هو الآخر في هذه المتون ويُفكّك مقولاتها هو الآخر، لا أن يكون محض مُتلقٍ سلبي لها. فتسريد التاريخ ـ حتى ولو كان تاريخ الأفكار ـ شيء، وإعمال العقل في هذا التاريخ لغاية تجاوزه شيء آخر تماماً. لكن ماذا عن شخص لا يقرأ لا الأفكار الفلسفية عبر الوسطاء أو المؤرخين، ولا يقرأ أعمال الفلاسفة من مصادرها الأصلية؟ هل هو مشمول بالتفلسف؟ هذا ما يحاول هذا الكتاب بسطه وتوضيحه في فصل (**الإنسان الفيلسوف**)، سواء أكان هذا الإنسان موسيقياً أو حدّاداً أو مُمثلاً أو روائياً أو طبيباً أو صاحب مهنة أو فناناً أو راقصة أو ربّة بيت...إلخ.

لذا، فإنّ هذا الكتاب يُقدّم التفلسف ويُؤخّر الفلسفة، نظراً للحاجة المُلحّة في عالمنا العربي لإعادة الاعتبار للعقل بما هو عقل بحاجةٍ ـ بشكلٍ ضروري ومصيري ـ للاحتفاء بالفاهمة أكثر من احتفائه بالذاكرة، بعد أن تحوّل ـ على مدار قرون طويلة ـ إلى مخزن مليء بالمحفوظات والمذاكرات والمعارف غير المُنتجة. لكن ذلك لا يعني بأيّ معنى شطب تاريخ الفلسفة، بل نحنُ أحوج ما نكون إلى التعرّف على التجربة الفلسفية الإنسانية عبر تاريخها الطويل،

والظروف الذي نتجت فيها تلك التجارب، لكن أن يتم ذلك في إطارٍ نقدي أكثر منه إطارًا تاريخيًا . فنحن لسنا بحاجةٍ إلى حفظ حِكَم لاو تسو Lao Tzu[11] بل نحنُ بحاجةٍ إلى تبصّر مآلتها في عقولنا أولًا وفي واقعنا ثانيًا، ولسنا بحاجةٍ إلى قراءة محاورات أفلاطون Platon [12] بقدر حاجتنا إلى مُحاورة هذه المحاورات ومُحاججتها من جديد، ولسنا بحاجةٍ إلى قراءة أطروحة الفارابي[13] حول المدينة الفاضلة، بل نحن بحاجةٍ إلى فحص مقولات تلك الأطروحة ومدى صمودها أمام الاختبار العملي ومدى استعداد الناس لها في المقابل. ونحن لسنا بحاجةٍ إلى قراءة نقودات إيمانويل كانط Immanuel Kant [14] للعقل، بقدر حاجتنا إلى نقد تلك النقودات والتعامل معها وفقًا لعقلٍ نقدي! وليس وفقًا لعقلٍ تسليمي. كذلك نحن لسنا بحاجةٍ إلى قراءة جدليات هيغل Gorge Wilhelm[15] Friedrich Hegel وانعكساتها اللاحقة على المشروع السياسي في العالَم وفقًا لصياغات كارل ماركس Karl Marx[16] بل نحن بحاجةٍ إلى قراءة هذه المشروع الفكري وتطبيقاته في أرض الواقع بعينٍ ناقدة ونافذة: ناقدة له فكريًا ونافذة له واقعيًا أي تجاوزه وتقديم بدائل أكثر انسجامًا مع حُريّة الإنسان. ونحن لسنا بحاجةٍ إلى قراءة براغماتية وليم جيمس William James[17] بقدر حاجتنا إلى قراءة

المسار الفكري لعصر الأنوار الغربي الذي أفضى إلى انتشار الفلسفة البراغماتية في أمريكا تحديداً.

وسط كل هذا نحن لسنا بحاجة إلى ترديد هذه المحفوظات - حتى لو كانت متوناً فلسفية غايتها الأصلية هو الإعلاء من شأن العقل - على مسامع الناس والتلاميذ، بل نحنُ بحاجة إلى استحضار كل فلسفات الأرض - قديمها وحديثها - استحضاراً نقدياً، يُحاور تلك الأفكار ويجادلها ويفكّك أبنيتها وينقد محتوياتها ويقدّم بدائل - إنْ استطاع إلى ذلك سبيلا - عنها بما يخدم مشروعه الحضاري في هذا العالَم. فاستحضار تلك الأفكار من الأهمية بمكان لتشكيل خميرة معرفية حول مُنطلقات/مآلات تلك الفلسفات، لكن إنْ بقي العقل عاجزاً عن طرح أسئلته حتى على المتون الفلسفية، فإنّه سيبقى عاجزاً على الدوام من إنتاج خبزه المعرفي، بما يُبقيه جائعاً يتسوّل بشكلٍ مُذلٍ ومُهين على أبواب الآخرين لكي يبقى على قيد الحياة. فهذه التوليفة من: 1- الخميرة المعرفية. 2- إعمال العقل عبر أسئلة دائمة في تلك الخميرة. لا يمكن تأسيسها بلحظة واحدة، بل لا بُدّ من فعل تراكمي يبتدئ من اللحظة الأولى التي يُولَد فيها الإنسان ولادة واعية في الزمن، وهذا ما سأبسط له في فصل (الطفل بما هو أقل من فيلسوف)، لكي تكتمل حلقات وجود المرء

في سلسلة الإنسان المُتفلسف؛ السلسلة التي تبتدئ بالطفل وتنتهي بالحكيم؛ سلسلة: 1- الطفل بما هو أقل من فيلسوف. 2- الإنسان الفيسلوف. 3- الفيلسوف. 4- الحكيم بما هو أكثر من فيلسوف. فما بين القلَّة التي يتحقّق فيها الطفل أو جزء من الإنسان المُتفلسف، وبين الكثرة التي يتحقّق فيها الحكيم أو جزء من الإنسان المُتفلسف، سيبقى العقل الإنساني نشطًا على الدوام. وهذا عين ما يُفصّله هذا الكتاب الذي جاء في أربعة فصول وهي على التوالي:

الفصل الأول: الطفل بما هو أقل من فيلسوف

الفصل الثاني: الإنسان الفيلسوف

الفصل الثالث: الفيلسوف

الفصل الرابع: الحكيم بما هو أكثر من فيلسوف

بما يُشكّل بناءً لـ معمار الإنسان المُتفلسف، فرباعية: **1- الطفل بما هو اقل من فيلسوف. 2- الإنسان الفيلسوف. 3- الفيلسوف. 4- الحكيم بما هو أكثر من فيلسوف.** هي رباعية تُنشّط الدورة العقلية للإنسان على المستويين **الفردي والجمعي**:

على المستوى الفردي إذ يمكن للإنسان أن يتدرج من كونه:

1- طفل شغوف بطرح الأسئلة بطريقة عفوية ودونما تأنيب بحيث يُفضي هذا الطفل إلى:

2- إنسان لا يكتفي بطرح الأسئلة فحسب، بل يُجسّد أسئلته تلك على هيئة نشاط إبداعي يُميّزه عن غيره من الناس. مع اختصاصه إنْ شاء ذلك في المعرفة بحيث يُفضي إلى:

3- فيلسوف يُعيد تأويل ثلاثية: (الإله/الإنسان/العالَم) ويمنحها مفاهيمية جديدة تُميت المفاهيمية القديمة وتُحيي العقل والناس مع المفاهيمية الجديدة.

4- حكيم يختزل البحر الكبير بنقطة ماء صغيرة.

وعلى المستوى الجمعي، إذ يمكن للمجتمع أن:

1- يتحوّل إلى حاضنةٍ حنونة لأسئلة الطفل ومظاهر تلك الأسئلة إن تتجلّى في الإنسان الفيلسوف والاجتراحات المعرفية للفيلسوف والاستبصارات الوجودية للحكيم. بعد –أي تحوّله إلى حاضنة للإبداع– بعد أن:

2- يُحرّر الفضاء العام من الإكراهات والاستلابات التي تقف حجر عثرة في وجه الإبداع، بما يستلزمه هذا التحرير من:

3- صياغة مُدونة قانونية تحمي كل ما من شأنه الإبقاء على العقل نشيطًا وسليماً .بحيث تتعدد خيارات الإنسان الإبداعية فيجد نفسه: أ ـ طفلاً لديه القدرة على طرح الأسئلة بطريقة عفوية دون تقريع وتأنيب من قبل الأهل. ب ـ إنسانًا فيلسوفًا يُجسّد أسئلته

العقلية عبر عملٍ إبداعي في مجتمع صحي وسليم. ج ـ فيلسوفًا يُعيد تأويل ثلاثية الإله والإنسان والعالَم دون أن تُدق المسامير في عقله من قبل السُلطة بجميع أشكالها، دينية كانت أم سياسية أم اجتماعية أم آيديولوجية. د ـ حكيمًا يُساهم في رشاقة مجتمعه ذهنيًا وواقعيًا، دون أن يتعرّض للأذى أو التسفيه أو الإهمال.

هوامش المقدمة:

1- جميل صليبي، المعجم الفلسفي، ج2، مادة فلسفة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982، ص 160.

2- المرجع السابق، ص 160.

3- فردريك كوبلستون Frederick Charles Copleston مُؤرّخ للفلسفة ولد بتاريخ 10/ 4/ 1907. عُرف في العالَم العربي من خلال موسوعته الفلسفية تاريخ الفلسفة A History of Philosophy بأجزائها التسعة، والتي صدرت عن المركز القومي للترجمة في مصر وأشرف على ترجمتها إمام عبد الفتاح إمام. ومن أعماله أيضًا: نيتشه Nietzsche وشوبنهاور Schopenhauer.

ولمعرفة المزيد عن كوبلستون يمكن مراجعة موقع:

https://www.giffordlectures.org/lecturers/frederick-charles-copleston

4- إميل برهييه Emile Brehier مؤرخ فلسفي، عُرف في العالَم العربي أكثر ما عُرف من خلال موسوعته (تاريخ الفلسفة) بمجلداتها السبعة، وقام بترجمتها المفكر «جورج طرابيشي».

5- ديفيد هيوم David Hume فيلسوف أسكتلندي، يعتبر من أهم فلاسفة عصر الأنوار، إذ شكلت أعماله الفلسفية مثل: (تحقيق في الذهن

البشري) و(التاريخ الطبيعي للدين) و(رسالة في الطبيعة البشرية) حقلًا معرفيًا سيكون له الأثر الكبير في الفلسفة الحديثة. لكتابه (تحقيق في الذهن البشري) ترجمة ثانية تحت عنوان (مبحث في الفاهمة البشرية) من إنجاز الدكتور «موسى وهبة»، لكن ما يميز ترجمة (تحقيق في الذهن البشري) التي إنجزها الدكتور «محمد محجوب» هو المقدمة التي وضعها وشرح فيها لماذا اختار مصطلح «الذهن» على مصطلح «الفاهمة» الذي اختاره موسى وهبة. فالمقدمة مادة مهمة في الترجمة والتفلسف.

6- ماريو بونجي Mario Bunge مفكّر أمريكي من أصول أرجنتينية ولد سنة 1919 وتوفي سنة 2020. غير معروف كثيرًا في الثقافة العربية، لكن ثمة مادة ثرية عنه وعن منهجه في المقدمة التي كتبها الدكتور صلاح إسماعيل الذي ترجم كتابه (العقل والمادة: بحث فلسفي) للغة العربية سنة 2019 وصدر عن المركز القومي للترجمة في القاهرة.

7- جاستن غاردر Jostein Gaarder اشتهر من خلال روايته (عالم صوفي) وهي تأريخ مُبسّط للأفكار الفلسفية الرئيسية. وقد ترجمت بعض أعماله الأخرى إلى العربية مثل (فتاة البرتقال) وكتاب (أسئلة وتساؤلات).

8- ول ديورانت William James Durant مؤرخ تاريخي وفلسفي، اشتهر جدًا من خلال عمليه الرئيسيين: (قصة الفلسفة) و(قصة الحضارة).

9- رينيه ديكارت Rene Descartes أحد أهم الفلاسفة في عصر الأنوار، حتى أن العصر كله يمكن أن يُؤشّر على بدايته الحقيقية مع كتابه (مقال

في المنهج). من أعماله الأخرى أيضًا: (التأملات في الفلسفة الأولى) و(انفعالات النفس).

11- باروخ أسبينوزا Baruch Spinoza من أهم فلاسفة عصر الأنوار، يعتبر كتابه (علم الأخلاق) أحد أهم الكتب الفلسفية الرئيسية، لكنه اشتهر أكثر من خلال كتابه: (رسالة في اللاهوت والسياسة). الذي ترجمه «حسن حنفي» وكتب له مقدمة طويلة ومفيدة.

11- لاو تسو Lao Tze من أشهر حكماء الصين القدماء ومُؤسِّس المذهب الطاوي، الذي أُخذت تعاليمه مِنْ كتابه العمدة: (الطاو: إنجيل الحكمة الصينية).

12- أفلاطون Platon أحد أهم ثلاثة إلى جانب سقراط وأرسطو – فلاسفة في الحضارة الإغريقية القديمة. اشتهر بمحاوراته التي كانت بطلها الرئيسي أستاذه سقراط. ولقد حظيت محاورته (الجمهورية) بانتشار واسع أكثر من غيرها، لانطوائها على إرشادات بالغة الأهمية في التأسيس للمدينة الفاضلة. وللجمهورية عدّة ترجمات إلى اللغة العربية.

13- أبو نصر الفارابي أحد كبار الفلاسفة في العالَم الإسلامي. حاول التوفيق بين العقل والوحي، لا سيما بعد أن دخلت الفلسفة اليونانية إلى المجال العام الذي تدور فيه الثقافة الإسلامية. أطلق لقب «المُعلّم الأول» على أرسطو، ولقب «المُعلّم الثاني» على نفسه. من مؤلفاته: (آراء أهل المدينة الفاضلة ومضاداتها) و(الرسائل الفلسفية).

14- إيمانويل كانط Immanuel Kant فيلسوف ألماني وأحد أعلام فلاسفة عصر التنوير. عُرف بثُلاثيته في نقد العقل: نقد العقل المحض، وفيه موقفه الفلسفي من نظرية المعرفة. نقد العقل العملي، وفيه موقفه الفلسفي من الأخلاق والضمير. نقد ملكة الحكم، وفيه موقفه الفلسفي من الجمال.

كما عُرف بمقالته صغيرة الحجم بالغة الأثر الموسومة بـ: (ما هو التنوير)؟ والتي افتتحها مُفتتحًا يليق بعقل فلسفي: «التنوير انعتاق المرء من حالة العجز الذاتي. العجز هو عدم قدرة المرء على استخدام فهمه الخاص دون توجيه الآخر».

وهي مقالة جدّ ضرورية لثقافتنا العربية المعاصرة، نظرًا لتحفيزها لما هو نقدي.

يمكن الرجوع لترجمة المقالة على موقع حكمة:

https://hekmah.org/%D8%A5%D8%AC%D8%A7%D8%A8%D8%A9-%D8%B9%D986-%%D8%B3%D8%A4%D8%A7%D984-%%D985%%D8%A7-%D987%%D988-%%D8%A7%D984%%D8%AA%D986%%D988%%D98%A%D8%B1%D89%F-%D8%A5%D985%%D8%A7%D986%%D988%%D98%A%D984-%%D983%/

15- وليم جيمس William James فيلسوف أمريكي ولد في العام 1842 وتوفي في العام 1910. يعتبر رائد الفلسفة البراغماتية وقد كان لكتابه

(البراغماتية) الأثر البالغ في تشكيل العقل الأمريكي، سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا في القرن العشرين. من كتبه الأخرى (إرادة الاعتقاد) و(معنى الحقيقة). ومؤخرًا صدرت ترجمة عربية لكتابه (تنويعات التجربة الدينية) عن مركز نهوض في دولة الكويت.

الفصل الأول

الطفل بما هو أقل من فيلسوف

يجنح الأطفال ـ في كثير من الأحيان ـ إلى طرح أسئلةٍ قد تؤدّي إلى:

1- دهشة للآباء والأمهات.

2- حرج للآباء والأمهات.

مما يُفضي إلى:

1- الاعتناء بتلك الأسئلة في حالة الدهشة، عبر تنميتها والاعتناء بسياقاتها المُختلفة.

2- القضاء عليها في حالة الحرج، عبر التحايل عليها لحظة انبثاقها وطمس معالمها مع الزمن.

بإزاء أسئلة الأطفال؛ ثمة تساؤل حولها لبلورة حالتي:

1- الدهشة.

2- الحرج.

وما يُفضيان إليه من:

1- تنمية تلك الأسئلة.

2- تدمير تلك الأسئلة.

متمثل ـ أعني التساؤل أعلاه ـ في الآتي: في أيّ أُسْرَة تنشأ حالة الدهشة؟ وفي أيها أسْرة تنشأ حالة الحرج؟ أو في أيّ أسرة يُمكن أن يخلق سؤالًا يطرحه الطفل حالة من الدهشة والانبهار لدى الأبّ والأمّ؛ وبالمقابل في أي أسرة يُمكن أن يخلق سؤالًا يطرحه الطفل حالة من الحرج لدى الأبّ والأمّ؟

قبل ذلك، ما هي طبيعة تلك الأسئلة؟ وكيف تنشأ؟ ولماذا؟ وأي مآلات لها؟

ابتداءً من اللحظة الأولى التي تمّ تأريخها علميًا بـ الانفجار الأعظم The Big Bang قبل 15 مليار سنة، وصولًا إلى لحظتنا الراهنة إذ يُسيطر جنسنا أو ما اصطلح عليه علميًا بـ الإنسان العاقل Homo Sapiens منذ ما يُقارب الـ 30 ألف سنة[1] على كوكب الأرض. نمت شجرة هائلة من المورّثات: 1- البيولوجية. 2- الثقافية، التي (جمعت/ فصلت) بني البشر عن بعضهم البعض. فاختلفت الأعراق والألوان والأجناس والألسن

والحضارات والعلوم والمعارف، ونشأت مجتمعات كثيرة ومتعددة، لديها مشتركات عديدة مع غيرها من المجتمعات، ولديها اختلافات عديدة أيضًا مع تلك المجتمعات. فالمجتمع الأشوري القديم (متفق/ مختلف) عن المجتمع الياباني الحديث في كثير من النقاط.

وبرأيي أن درجة (الاتفاق/ الاختلاف) بين مجتمعٍ وآخر تنطلق من تعريفات تلك المجتمعات لثُلاثية:

1- الإله.

2- الإنسان.

3- العالَم.

وتقاطعات تلك الثلاثية مع ثُلاثية:

1- الأشخاص.

2- الأفكار.

3- الأشياء.

أو المُحدّدات المعرفية لعالَم المعقولات وتمثّلات تلك المُحدّدات في عالم الماديات. أو المُنطلقات المعرفية في تعريف

ثلاثية: 1- الإله. 2- الإنسان. 3- العالَم. على المستوى الذهني. ومآلات تلك التعريفات على: 1- الأشخاص. 2- الأفكار. 3- الأشياء. في الواقع العملي.

وبرأيي ـ مرة أخرى ـ أن جميع الأسئلة التي يسألها الكبار والصغار، الأطفال والحكماء، الفلاسفة والعلماء، وجميع الأجوبة التي يقترحها الناس صغيرهم وكبيرهم، جاهلهم ومتعلمهم، تدور حول واحدة ـ يمكن أن تزيد وفقًا لاعتبارات شتّى من أهمها الاشتغال المعرفي ـ من تلك السداسية، سواء أكانت على المستوى الذهني أو المستوى العملي.

وعليه، فأسئلة الأطفال ـ موضوعنا في هذا المقام ـ تندرج بداية حول واحدة من ثُلاثية: 1- الإله. 2- الإنسان. 3- العالَم. أو ثُلاثية: 1- الأشخاص. 2- الأفكار. 3- الأشياء. وقد يكون ثمة سؤال من الأسئلة التي تطرح جامعًا لأكثر واحدة من هاتِهِ المبادئ. أي أن طبيعة تلك الأسئلة أو ماهويتها تدور حول مبدأ من المبادئ التأسيسية التي يقوم عليها معمار الوجود الإنساني. لكنها طبيعة أو ماهوية ضبابية إلى حدٍّ ما، لسببين:

1- استنادها إلى خبرات غير واعية في النفس الإنسانية،

فالطفل حامل ـ منذ لحظة ولادته ـ لصفات جينية تجعله يندمج في مشتركات مع بقية الجنس البشري، فهو يجوع مثلهم ويعطش مثلهم ويُكافح للبقاء على قيد الحياة مثلهم، وعادة ـ بما أنه لا يملك وسائل أخرى تحديدًا في الفترات الأولى لولادته ـ ما يستخدم أداة البكاء لتنبيه أمه أو مُربيته أو مَنْ هم حوله إلى ضرورة إطعامه أو إشرابه أو تنظيفه أو معالجته...إلخ. لكن المُلاحظ أنّ مثل هذه الخبرات لا تجد لها تأطيرًا واعيًا، أي أنّ الفرد لا يدخل في حالة تشذيب لخبراته اللاواعية إلا عبر تجربة الوعي إذ يستفيد مع الزمن من خبرات الآخرين في هذا المجال، بما فيها المُحدّدات التي يُحددها المجتمع للتعامل مع تلك الخبرات في المجال العام.

ولأنها كذلك، فإنها:

2- تنبثق بطريقة فجائية، فالطفل لا يعرف ما هي الضوابط الاجتماعية التي تُحدّد له ما هي الصيغة الأمثل والأسلم التي تؤمِّن له الإطار النهائي لأسئلته التي يجب أن يسألها، وتلك التي يجب أن يغلق فمه ـ قبل ذلك عقله ـ عنها فلا يُعاود السؤال عنها.

وعليه، أيّ لأنها غير واعية ابتداءً وتنبثق بطريقة فجائية من ثمَّ، فإنّ المجتمعات تتعامل بحبور ورضا وضحك حتى

مع أسئلة الأطفال في المرة الأولى. لكن في حال تكرار أسئلة بعينها ـ تحديدًا تلك التي تتجاوز مثاليات المجتمع وطهاراته التي يصطلح عليها بالتقادم ـ تنبثق الفروقات الثقافية بين المجتمعات، فتحدث حالة:

1- الدهشة من أسئلة الأطفال لدى البعض، أو تحدث حالة؛

2- الحرج من أسئلة الأطفال لدي البعض الآخر.

إذًا، تنشأ أسئلة الأطفال:

1- بطريقة غير واعية، استجابة لتراكم المورثات البيولوجية والثقافية، وانتقالها إلى الطفل جيلًا إثر جيل لكن بطريقة مشوّشة وغير مُنظمّة، مما يُفضي إلى انبثاق الأسئلة:

2- بطريقة فجائية تخلو من أي نيّة مُضمرة للذهاب باتجاه إجابات بعينها، يُريدها الطفل تحديدًا دون غيرها، بل تبقى مُعلّقة برسم مَنْ يُحيطون به، والآلية التي يتعاملون بها مع تلك الأسئلة.

فالطفل إذ يسأل فإنه يسأل استجابة لنداءٍ غير واعٍ من جهة وغير زمني من جهة ثانية. فهو يتدرج ـ من لحظة ولادته وصولًا إلى عُمر السنتين ـ وفقًا لتقسيمات جان بياجييه Jean Biaget [(2)]

في تفاعله مع محيطه الخارجي، ابتداءً من نظرته الكُليّة للأشياء وصولًا إلى تشكيل بعض الصور الذهنية عن الواقع[3]

وحتى مراحل متقدمة من الطفولة، «تشير النظرية الشهيرة لـ (جان بياجييه، 1933م) حول التطور المعرفي إلى أن معظم الأطفال قبل عمر 11 أو 12 سنة غير قادرين على التفكير الفلسفي. وفي اعتقاده أن هذا يعود إلى أن الأطفال ـ قبل هذا العمر ـ لا يستطيعون التفكير حول التفكير وهو نوع أعلى من مستوى التفكير الذي يتصف به التفكير الفلسفي»[4]

«أما الفيلسوف (غاريث ماثيوز) فقد قطع شوطاً بعيداً في ذلك وناقش بإسهاب أن بياجيه عجز عن أن يرى التفكير الفلسفي الظاهر لدى كل طفل قام بدراسته»[5]

لكن بتدقيقٍ قليل سنرى أن نظرية جان بياجيه أكثر متانة، فهي تصلح أن تكون قاعدة في حين أن وجهة نظر ماثيوز تصلح لأن تكون استثناء ولا يمكن تعميمها كقاعدة عامة، وذلك لسببين:

1- على اعتبار أن نظرية بياجيه تُعالج نموذجًا إنسانيًا في عموميته، في حين أن وجهة نظر ماثيوز تأخذ بعض العينات

التي لا تصلح إلا على أناس بعينهم دون سواهم.

2- تنكّر وجهة نظر ماثيوز للمخزون اللاواعي عند البشر، فرؤية طفل على درجة من الوعي هنا أو هناك يسأل سؤالًا لا يعني أن كل الأطفال على السوية ذاتها.

من هنا، فإنّ أسئلة الأطفال في عموميتها أسئلة غير واعية أو ناتجة بالأحرى من خبرات إنسانية غير واعية بالدرجة الأولى. من ثمَّ هي أسئلة غير زمانية، أي أنها لا تتدرج وفقًا لاعتبارات منطقية، إذ تنطلق بشكل فجائي طالما أنها تُعبّر عن خبرات غير واعية. فأسئلة الأطفال شبيهة بردّات فعلنا تجاه رؤيتنا لعقرب أو أفعى أو رؤيتنا للطعام ساعة نجوع. فالطفل لا يبني معمارًا معرفيًا يستند فيه إلى خبراتٍ واعية تتدرج من مُقدّمات بعينها تريد الوصول إلى نتائج من نوعٍ ما. فالطفل قد يسأل ـ وهذا يحدث كثيرًا ـ سؤالًا على غاية منَ الأهمية لكن هذا السؤال قد يموت في اللحظة ذاتها، وهذا رهن بالطريقة التي يُستقبل بها من قبل محيطه.

مع هذا الطرح ـ وهو بطبيعة الحال طرح غير نهائي لأنه لا ينطوي على أيّ يقنينة بقدر انطوائه على مقاربة معرفية ـ لناحية

لا وعي أسئلة الأطفال من جهة، ولا زمانيتها من جهة ثانية، يبقى سؤال: لماذا يسأل الأطفال أسئلتهم؟ سؤالًا على غاية من الأهمية، لأنّ عدم الإجابة عليه بطريقةٍ واضحة وجليّة ونهائية، جزء من مهمة التفلسف الإنساني. إذ يمكن للجدل حول سؤالٌ لماذا Why أن يُوسّع مدارك التفكير حول تلك الأسئلة، بما هو سؤال جدلي ابتداءً وعلى الأغلب تتأتّى فائدته مع الزمن وليس لحظيًا، لناحية خلق تراكمات معرفية ستفيد المجال العام أو ما يُطلق عليه عالِم الاجتماع «رايت ميلز [6] C.Wright Millsبالخيال السوسيولوجي The Sociological Imagination. وكلما تعمّق النقاش في المجال العام كُلّما توسّعت مدارك ذلك الخيال وأصبح أكثر قدرة على الإبداع في اقتراح الإجابات وتوسيع آفاقها.

أو بمعنى آخر، فإنّ الإجابة على سؤال: كيف تنشأ أسئلة الأطفال؟ هي إجابة آنِيَّة سيقترحها على الأغلب شخص واحد أو عدد من الأشخاص. في حين أن الإجابة على سؤال: لماذا تنشأ أسئلة الأطفال؟ هي إجابة مُستقبلية وبرسم العقل الجمعي، إذ يمكن أن تتحوّل الاقتراحات حول الإجابات إلى جزء من سيرورة العقل في الاجتماع السياسي. ومعًا يُشكّلان ـ أعني سؤالي كيف How ولماذا Why، أو يساهمان في صقل العقل وتقويته

وتمتين أدواته ـ على المستويين: الفردي والجمعي ـ عبر إدخاله في نوعين من التمارين الذهنية: أولها بحثي آني منوط بالأفراد، وثانيها فلسفي ماراثوني أو طويل الأجل منوط بالجميع.

إذًا، بإزاء:

1- طبيعة أسئلة الأطفال.

2- كيف تنشأ هذه الأسئلة؟

3- لماذا تنشأ هذه الأسئلة؟

ثمة سؤال حول: مآلات تلك الأسئلة؟

هنا نعود إلى البداية ساعة أشرنا إلى أن أسئلة الأطفال تستلزم: 1- دهشة من بعض الآباء والأمهات. 2- حرجًا من بعض الآباء والأمهات. وما تُفضي إليه هذه الدهشة أو الحرج من: 1- تنمية لتلك الأسئلة. أو 2- تدمير لتلك الأسئلة.

لكن السؤال: كيف تنشأ الدهشة أو الحرج أصلًا؟

أشرتُ سابقًا إلى أنّ جميع الأسئلة التي تُطرح من قبل أيّ أحدٍّ في هذا العالَم بمن فيهم الأطفال، تدور حول ثُلاثية: 1- الإله. 2- الإنسان. 3- العالَم. وتعالقاتها مع ثُلاثية: 1- الأشخاص. 2- الأفكار. 3- الأشياء. لذا فإنّ الدهشة أو الحرج (تتأتَىّ/ يتأتَىّ)

من وضع واحدةٍ من تلك المفاهيم موضع تساؤل.[7] ففي المجتمعات التي طوّرت مرجعياتها الفكرية وجعلتها مُتحرّكة على الدوام في التعامل مع تلك المفاهيم سيجد أفرادها دهشة وغبطة في أسئلة الأطفال، فهي جزء من الدفقة المُتحركة لتلك المرجعيات. وفي المجتمعات التي ثبتّت مرجعياتها الفكرية في التعامل مع تلك المفاهيم وحوّطتها بجُملةٍ من العقوبات الشديدة سيجد أفرادها حرجًا شديدًا من أسئلة الأطفال.

ففي المجتمعات الأولى؛ المجتمعات التي طورت مرجعياتها الفكرية حول تلك السُداسية: 1- الإله. 2- الإنسان. 3- العالَم. 4- الأفكار. 5- الأشخاص. 6- الأشياء. ستُنمّي تلك الأسئلة وتحوّل شغفها غير الواعي وغير الزماني إلى فعل واعٍ ومُتدرج في انبثاقته للعالَم، بحيث يتحوّل الطفل الصغير إلى مُتفلسف برسم تطوّره المعرفي. فالطفل في هذه اللحظة، في اللحظة التي يسأل فيها سؤالًا ويجد له صدى إيجابيًا لدى مُحيطه الأسري؛ هو أكثر من طفل على مستوى الوعي، وأقل من فيلسوف على مستوى الزمن. وفي المجتمعات الثانية، المجتمعات التي راقبت مرجعياتها الفكرية حول تلك السداسية وأقامت حول مفاهيمها القديمة أسوارًا نفسية وقانونية قاسية ومؤذية لكي لا يقترب

منها أيّ أحد، ستُدمّر أسئلة الأطفال وتحوّل شغفها غير الواعي وغير الزماني إلى نوعٍ من العار الاجتماعي، يُسعى للتكفير عنه لزمنٍ طويل. فالطفلُ في هذه اللحظة، في اللحظة التي يسأل فيها سؤالًا ويجد أنّ محيطه الأسري قد أنبَّه وزجره؛ تحطيم لمشروع إنسان مُتفلسف أو في طريقه إلى التفلسف المستقبلي؛ وإبقاء له ضمن دائرة الناس كما تُفرزهم هكذا مجتمعات، أناس بِسِمَاتٍ عقلية مُتشابهة إلى درجة انعدام أي إبداع.

بمعنى آخر، إنّ المجتمعات التي خاضت نقاشات طويلة وعلى مستويات مختلفة حول السداسية السابقة، وتراكمت لديها خبرات هائلة حول تلك المفاهيم الأصلية، لن تجد حرجًا أو جُرحًا في أسئلة أيّ كان. فالمجال العام لا يجد في تلك الأسئلة أي حرج لمنظومته أو تهديدًا للثوابت القائمة، فهي ثوابت مُتحرّكة بالأحرى، لذا فإنه يُشجّع تلك الأسئلة وينمّي سياقاتها المختلفة، بحيث تتنامى قوتها المعرفية على المستويين الفردي والجمعي. فالطفل إذ يسأل على المستوى الفردي ويجد قبولًا وترحيبًا لسؤاله في المجال الذي تتحرّك فيه ذاته المُتسائلة، فذلك دافع قوي له لكي يستمر في طرح أسئلته، ونقلها ـ بمزيدٍ من الدربة والتجريب ـ من حالة اللاوعي واللازمانية إلى حالتي الوعي

والزمانية. والمجتمع الذي يتقبّل سؤال الطفل بشكلٍ جماعي، بحيث يتفاعل معه ويندهش به، فإنه يُقوّي ـ هو الآخرَ ـ مجاله العام، ويُحوّله إلى حاضنة كبيرة للإبداع.

أما المجتمعات التي ختمت نقاشاتها مرة واحدة وإلى الأبد حول السُداسية السابقة، فتشابهت عقول عُلمائها وأطفالها، تلامذتها وأساتذتها، صغارها وكبارها، رجالها ونساءها، حول مفاهيمية تلك السداسية، ستجد أيّ سؤال تهديدًا لوجودها وزعزعة لأمانها الفكري. فالمجال العام ليس لديه تجربة في التعدّد الفكري، لذا سيرى حتى في أسئلة الأطفال انتهاكًا لحُرمته وتدنيسًا لثوابته، بما هي ثوابت غير مُتحرّكة على المستويين الفردي والجمعي. فالطفل إذ يسأل على المستوى الفردي ويجد رفضًا وتأنيبًا له على سؤاله من محيطه الذي يتواجد فيه، فذلك دافع قوي لإحباطه وبلع لسانه وقتل مشروع الفيلسوف داخله. والمجتمع الذي يرفض سؤال الطفل بشكل جماعي، بحيث يُحرج منه وينجرح شعوره، فإنه يُضعف مجاله العام، ويُحوّله إلى منطقة طرد كبير لأيّ إمكانٍ إبداعي.

وقد كان الفيلسوف «غاريث ماثيوز» ـ الذي ردّ على نظرية

جان بياجيه كما بينّت سابقًا ـ قد قدم عددًا من الأمثلة عن الحيرة الفلسفية لدى أطفال صغار جدا، فمثلاً:

1- تَيّمُ البالغ من العمر ست سنوات: بينما كان منهمكاً في لعق الإناء سأل: أبي كيف يمكن أن نتأكد من أن كل شيء ليس حلماً؟

2- أما جوردان البالغ من العمر خمس سنوات: عند ذهابه للنوم في الساعة الثامنة مساءً سأل: إذا ذهبت إلى الفراش للنوم في الساعة الثامنة وصحوت في الساعة السابعة صباحاً، كيف أتأكد حقاً من أن العقرب الصغير للساعة قد دار مرة واحدة فقط؟ هل يتعين عليّ السهر طوال الليل لمراقبته؟ وإذا نظرت بعيداً حتى ولو لبرهة فلربما يدور العقرب الصغير مرتين.

3- في أحد الأيام قام (جون إدغار) (أربع سنوات) بأول رحلة له بالطائرة، وكان قد اعتاد رؤية الطائرات وهي تقلع وتصعد في السماء ثم تختفي تدريجياً في الفضاء. وعندما توقفت الطائرة عن الصعود وظهرت إشارة السماح بفك حزام المقعد، التفت جون إلى والده وقال بنبرة صوت يعلوها الارتياح الشديد، وإن كانت مشوبة بالحيرة: إن الأشياء لا تصبح في الحقيقة أصغر في الأعلى هنا»(8)

فالأمثلة التي ضربها «ماثيوز» لا تخرج ـ كما أسلفت ـ عن أن تكون في عموميتها أسئلة: غير واعية من ناحية، وغير زمانية من ناحية ثانية. لكنها انبثقت في مجتمع طوّر قدراته العقلية على مدار أربعة قرون من الزمان، فهيّأ المجال العام لتبنّي الأفكار وحضنها ودعمها أيًّا كان مصدرها، فهي أحد الروافد لحركة الإبداع الكبيرة، بصفتها حركة واعية من جهة وزمانية من جهة ثانية، بما يُنشّط عقولهم ويجعلها فاعلة في هذا العالَم. فأيام رينيه ديكارت Rene Descartes[9] أحجمت الكثير من الأوساط العلمية عن تدريس فلسفته بسبب صدمها لما هو متعارف عليه وقتذاك، ومع الزمن تحوّل ديكارت في المجتمع الذي رفضه إلى «أبو الفلسفة الحديثة». وكتاب كوبرنيكوس[10] Nicolaus Copericus الذي اعتبر بوقت لاحق نقطة مفصلية في التاريخ العلمي للبشرية، لم يستطع كوبرنيكوس نشره وهو على قيد الحياة، خوفًا على حياته من أصحاب الأفكار المُغلقة. وفي الوقت الذي تحوّلت فيه أفكار جون لوك [11] John Locke إلى مُوجهة للنسق الليبرالي وما نتج عنه من صياغة لُمدونة حقوق الإنسان، كانت الشرطة تُلاحقه وهو على قيد الحياة، بسبب انتماءاته السياسية مما اضطره للهجرة إلى هولندا. أيّ أن المجال العام أصبح ـ في هكذا مجتمعات ـ

حاضنة للإبداع بكافة أشكاله بما فيها أسئلة الأطفال، لذا من الطبيعي أن لا تُقابل أسئلتهم بالحرج أو الاستهجان أو التقريع أو التأنيب أو التأثيم، بما يكبح جماحها لاحقًا. بل تُقابل بالدهشة والترحيب والعطف والرعاية، بحيث تتحوّل إلى أنساق معرفية قوية ومتينة تُؤتي أُكلها مع الزمن.

وفي المجتمعات المُقابلة، المجتمعات التي خنقت المجال العام الذي يتحرك فيه الأفراد وتنمو علاقتهم بـ الأشياء والأفكار، فشيء طبيعي أن تُقابل أسئلة الأطفال بالحرج والتأنيب والتأثيم والتقريع وربما الضرب، بما يُبقي عليهم في مرحلتي: 1- ما قبل الوعي. 2- اللازمانيّة. ومع الزمن تتعمق هذه الثنائية، إلى أن يصلوا إلى مرحلة متقدمة تعزلهم حضاريًا وتُخرجهم من التاريخ، فالمعرفة متحرّكة وهم ثابتون.

لكن هذه الشرطية، حول مآلية أسئلة الأطفال وتعامل المحيط معها بـ:

1- دهشة في المجتمعات المتطورة.

2- حرج في المجتمعات المُغلقة.

ليست قَدَرًا قاهرًا لا يمكن تفاديه. بل هي ـ أعني شَرْطية

مآلية أسئلة الأطفال ـ محض حدث تربوي يمكن تجاوزه بالدربة والتمرين على احترام العقل في مواضعاته المختلفة، سواء أكانت على هيئة سؤال شائق من طفل أو لوحة جريئة من فنان أو كتاب صادم من فيلسوف أو رواية مُبدعة من راو أو قصيدة من شاعر أو أغنية من مطربة أو رقصة من راقص أو طبخة من صبية... فالكُلّ شركاء في صياغة المنظومة الإبداعية وتفعيل محتوياتها في الاجتماع السياسي. من لحظة الميلاد الواعي في الزمن إلى توريث القيم العقلية للأجيال المُتعاقبة وعدم حصرها في منظومات جاهزة وناجزة بشكلٍ مُطْلَق.

وعليه ـ كخاتمة لهذا الفصل ـ فولادة الطفل بما هو أقل من فيلسوف وتحقّقه في هذه البؤرة المُنتجة معرفيًا، رهن بولادته ولادة مزدوجة:

1- ولادة واعية.

2- في الزمن.

وذلك بإنضاج مورّثاته البيولوجية والثقافية ومنحها طابعًا واعيًا، يُعقلن مساراتها ويُؤهّل صاحبها ليكون جاهزًا لـ:

1- نقد هاتِهِ المورّثات نقدًا معرفيًا وعدم التعامل معها

كثوابت تسليمية، وذلك لتبصّر نقاط قوتها وضعفها، فيُصار إلى تعزيز نقاط القوة وتجفيف نقاط الضعف.

2- بما يستلزم تقديم بدائل معرفية، بحيث لا تحدث فراغات يلجأ للخرافات والهلوسات لملئها وسدّ فراغاتها.

بما يُفضي ـ أعني تحقّق الطفل في حالةٍ من التفلسف ـ إلى توفير بيئة خصبة وآمنة، لكي ينتقل الإنسان من مرحلة الطفل بما هو أقل من فيلسوف إلى مرحلة الإنسان الفيلسوف، التي سأتناولها بالبحث والتقصيّ في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

هوامش الفصل الأول:

1- من بعض المراجع الهامة في هذا المجال:

كتاب (علم النفس التطوري) لـ ديفيد باس David Buss والذي قام بترجمته للعربية الدكتور مصطفى حجازي صاحب الكتاب ذائع الصيت (التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور).

كذلك كتاب (العاقل: تاريخ مختصر للنوع البشري) لـ يوفال نوح هراري.

وكتاب (أعظم استعراض فوق الأرض) لـ ريتشارد دوكنز Richard Dawkins.

وكتاب (كون من لا شيء) لـ لورانس كراوس Lawrence M. Krauss.

وكتاب (الجين: تاريخ حميم) لـ سيدهارتا موكرجي Siddhatha Mukherjee.

2- جان بياجيه Jean Biaget عالم نفس اهتم بموضوعة بعلم المعرفة الوراثية. من كتبه التي تُرجمت للعربية: (سيكولوجيا الذكاء) و(الابستمولوجيا التكوينية)...إلخ. وفي كتاب (التطور المعرفي عند جان بياجيه) لـ موريس شربل، دراسة وافية عن مشروعه الفكري.

3- موريس شربل، التطور المعرفي عند جان بياجيه، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1986، ص ص 113 - 120.

4- مايكل بريتشارد، فلسفة للأطفال، موسوعة ستانفورد للفلسفة، ترجمة سميرة أحمد بادغيش.

81%%84%D8%B3%D9%81%D9%https://hekmah.org/%D9
8%84%D8%A3%D8%B7%D9%84%D9%D8%A9-%D9
/84%1%D8%A7%D9

5- المرجع السابق، موقع حكمة.

6- رايت ميلز Wright Mills عالم اجتماع أمريكي ولد في العام 1916 بولاية تكساس، وتوفي في نيويورك سنة 1962. من كتبه المُترجمة والمفيدة للغة العربية كتاب (الخيال السوسيولوجي).

7- سأناقش ثُلاثية: -1 الإله. -2 الإنسان. -3 العالَم. وعلاقتها بثُلاثية: -1 الأشخاص. -2 الأفكار. -3 الأشياء، بالتفصيل في فصل الفيلسوف من هذا الكتاب.

8- مابكل بريتشارد، فلسفة للأطفال، موسوعة ستنافورد للفلسفة، موقع حكمة، مرجع سابق.

9- راجع الهامش رقم 9 في مقدمة الكتاب حول رينيه ديكارت.

10- نيكولاس كوبرنيكوس Nicolaus Copernicus عالم فلكي ولد في العام 1473 وتوفي سنة 1543. يعتبر أحد أشهر العلماء في التاريخ نظرًا لدوره الرائد في تعزيز مكانة العلم الحديث وأثره البالغ على العصور اللاحقة لعصره. ثمة مادة ثرية عن كوبرنيكوس ومشروعه العلمي في

كتاب (كوبرنيكوس وداروين وفرويد: ثورات في تاريخ وفلسفة العلم) لـفريدل فاينرت، ترجمه للعربية أحمد شكل وصدر عن مؤسسة هنداوي في لندن.

11- جون لوك John Locke فيلسوف انجليزي ولد في العام 1632 وتوفي سنة 1704. عُرف بكتبه التي كان لها دور رئيسي في تشكيل المرجعيات السياسية الحديثة، مثل (في الحكم المدني) و(رسالة في التسامح).

الفصل الثاني

الإنسان الفيلسوف

مَنْ هو الإنسان الفيلسوف؟ أو بالأحرى هل ثمة إمكان لولادة إنسان فيلسوف؟ وبإزاء هذا الإمكان للولادة - إنْ وجدت - كيف يمكن لهذا الإنسان أن يبقى حيًّا أو أن يموت؟

في نهاية الفصل السابق أشرتُ[1] إلى أنّ تحوّل الطفل إلى مشروع فيلسوف مستقبلي رَهنٌ بولادتين:

ولادة على مستوى الوعي، وتحقّق هذه الولادة في الزمن. هاتِهِ الولادة المزدوجة هي المقدمة الضرورية والمصيرية لولادة الإنسان الفيلسوف. أيّ أن تحقّق النتيجة في العالَم رهن بحدوث الولادة المزدوجة بما هي المقدمة، فانتفاء واحدة من هاتين الولادتين يُشوّه مسار التحقّق في الإنسان الفيلسوف، وغيابهما معًا يُفضي إلى حدث الموت.

لذا فإنّ ولادة الإنسان ولادة معرفية - بما هي ولادة واعية في الزمن - لكي تُعيد ضبط مورثاته التي توارثها في بيئته، ينبغي أن تسير في اتجاهين ليتحقّق الإنسان في شرط كونه إنسانًا مُتفلسفًا:

اتجاه جمعي يتوافر على: 1- أسرة. 2- مدرسة. 3- مجتمع. 4- قرار سياسي. يعي أن الإنسان ناقص لحظة ولادته ضرورةً، وعليه ـ لكي يُرمّم هذا العطب ـ أن يكتمل معرفيًا، ضمن حاضنة كبيرة تشمل جميع مُكوّنات المجتمع من أنويته الصغيرة إلى رموزه المعنوية. فولادته المادية الأولى إذ يخرج من رَحِم أمه وتوافره على مُورّثات عديدة تناقلت إليه جيلًا إثر جيل، لا تجعل منه مُتفلسفًا حتى ولو انطوت حياته الخاصة على بعض الفلتات الذكية، بل لا بُدّ أن يتوافر على حواضن كثيرة، تبتدئ من لحظته الأولى إلى لحظته الأخيرة. فـ:

1- الأُسْرَة تُؤهله أو تنتظره لكي ينطق بسؤاله الأول، كما تنتظره ليبتسم ابتسامته الأولى أو يخطو خطوته الأولى أو ينطق لأول مرة بكلمة بابا أو ماما. فالسؤال الأول الذي ينطق به هو إشهار لتاريخ ولادته المعرفية. فكما أن تاريخ ولادته البيولوجية يمكن أن يُؤرّخ على سبيل المثال بتاريخ 1988/10/30، كذلك فإن أول سؤال يسأله الطفل يمكن أن يُؤرّخ لولادته معرفيًا بتاريخ 1993/4/25. لكن في الكثير من الأحيان لا تُنْسَى ابتسامة الطفل الأولى لكن يُنسى سؤاله الأول بسهولة، أي يُحتفى بامتداداته البيولوجية ويتم التغاضي عن انبثاقاته المعرفية. فالأسرة

هي الحضن الأول[2] لتشكيل اتجاه جمعي وذلك بتوفير بيئة آمنة للعناية بالطفل (= إنسان المستقبل) لكي تُشهر ولادته المعرفية ويُحتفى بعقله الذي بدأت تدبّ فيه حياة الوعي. لكن إذا لم يتوافر الطفل على هذه الحاضنة التي تُوفّر له الرعاية المناسبة، فإنّ أسئلته أو اللحظة الأولى لولادته معرفيًا سيتم إجهاضها وتدميرها بشكل منهجي، فالحرج من هاتِهِ الأسئلة وما يتبعه من استنكار وإسكات وتأنيب وتأثيم وضرب، سيُولّد خوفًا كبيرًا لدى الطفل، فيجعله يلجأ إلى واحد من ثلاث خيارات[3]: الأول السكوت التام عن طرح أيّ سؤال، وهذا حال الأغلبية. فالناس يتوارثون ـ جيلًا إثر جيل ـ معلوماتهم عن سُداسية: 1- الإله. 2- الإنسان. 3- العالَم. 4- الأشخاص. 5- الأفكار. 6- الأشياء. وقلّما تجد من يُحدث خرقًا في مفاهيمية هذه المنظومة، نظرًا لتحويطها بحُزَم قاسية من العقوبات المادية والرمزية. الثاني كتمانها بطريقة مواربَة أو الانتقال إلى نظام التُقيّة أمام الأهل، أو إخفائها عن الأهل وتنميتها مع الذات، لحين بلورة سياق آخر أو التوفّر على حاضنة أخرى مثل الأصدقاء أو الحلقات النقاشية، وهذا حال القلّة إذ يميل الإنسان إلى عدم الصدام مع أقرب الناس إليه لكي لا يخسر علاقته بهم، أيّ أنه يُضحّي

بولادته العقلية لكي يُبقي على الحميمية والطمأنينة التي تُؤمّنها وتوفّرها له ولادته البيولوجية. الثالث كتمانها بطريقة جزئية، مع إضافة الأُسْرَة إلى جزءٍ من سيرورة الأسئلة، أي الاستفادة من خنقها لتلك الأسئلة وتحويلها إلى مادة خام لإبداع قادم وذلك بتفكيك أنساقها عبر التساؤل عن أسباب خنقها لتلك الأسئلة، ومُراكمتها إلى جانب أسئلة كثيرة إلى أن يحين وقت الإفصاح عنها جميعًا. وهذا حال القلّة القليلة، وقد لا يتوافر ذلك الخيار إلا للعالِم أو للفيلسوف بشكلٍ أوضح، وهذا ما سأتناوله بالبحثَ والتقصيّ في الجزء الثالثً من هذا الكتاب.

2- والمدرسة تُعزّز مسار الأسرة في تشكيل اتجاه جمعي يُعزّز ولادة الإنسان معرفيًا، إذ يتوسّع المحيط الذي تتحرّك فيه الأسئلة، فبعد أن يكون سؤال الطفلِ مقتصرًا على أسرته، يتلاقى سؤاله مع أسئلة أصدقاء جدد من أُسر مختلفة ومتعدّدة. فالسؤال يصبح جُملة من الأسئلة والإجابات تتنوّع وتثري عقول الأطفال. فتلاقي الأسئلة واصطدامها ببعضها البعض اصطدامًا إيجابيًا وإثراء نقاشات حولها للبحث عن إجابات مُتعدّدة لها، سيُفضي بلا شكّ إلى توسيع الدائرة التي يتحرّك بها عقل الإنسان، مما يُعزّز مكانته في هذا العالَم. فالإجابة على

سؤال ما ليس بالضرورة أن تكون إجابة نهائية أو مُطْلَقة، بل ثمة احتمالات كبيرة لتوليد إجابات جديدة ساعة تتلاقى العقول وتتفاعل مع بعضها البعض. فالمدرسة بيئة حاضنة للإبداع المعرفي إذا توافرت على طفل أُشْهُرِت ولادته المعرفية الأولى في أسرته، ووجد أستاذًا يُثني على تلك الولادة ولا يعمل على قتل براعمها. فالتفاعل بين الطلبة بعضهم مع بعض بوساطة أسئلتهم ـ إذا ما أتوا من أُسَرٍ أشهرت ولادة عقولهم في العلن ولم تخجل من ذلك الإشهار ـ وتفعيل هذا النشاط من قبل أستاذ يعي الدور الحقيقي للمدرسة بما هي حاضنة للإبداع، سيجعل من المدرسة رحلة تكميلية لمسار ولادة الإنسان معرفيًا. أما إذا توافر الطالب على أصدقاء مُجْهَضِي الولادة المعرفية وأساتذة قاتلين للإبداع، سيُفضي إلى حالةٍ مَن الإحباط الشديد(4) فبقدر ما يمكن أن تُعزّز المدرسة الاتجاه الجمعي في نقل الإنسان نقلته الثانية في مسار ولادته المعرفية، وذلك لما تتوافر عليه من بيئة راعية ومُنميّة لهذه الولادة، بقدر ما يمكن أن تُساهم المدرسة في تحجيم عقل الإنسان وإعادته خطوة إلى الخلف حتى لو توافر على بيئة حاضنة في الأسرة، فالعالَم الذي يشغله في المدرسة أوسع بكثير من العالم الذي يشغله في البيت. فوجود طلبة وأساتذة

لديهم آليات التفكير ذاتها ـ بما يقود حتماً إلى توحيد نتائج آليات التفكير تلك وتشابهها ـ ستفرض على الطالب خيارًا من ثلاثة خيارات[5]: الأول الاندماج في مصفوفة المقدمات/ النتائج التي يُؤمن بها الجميع وعدم الخروج عليها لكي لا يتعرض للنبذ الاجتماعي الذي توفره البيئة المدرسية. وهذا يتأتى للغالبية العظمى في المجتمعات التي تُعاقب على الأسئلة، فالمدرسة بطريقة أو أخرى انعكاس ما للبيت، فالبيت الذي يقمع أطفاله، سيُسهّل مهمة أطفاله في المدرسة فيجعلهم مندمجين في بيئة مقموعة هي الأخرى تتشابه فيها العقول إلى درجة التساوي في عدم الإبداع. والثاني الانفصام بين الاستحقاق المنزلي والاستحقاق المدرسي، تحديدًا إذا ما كان البيت حاضنة للإبداع وموطنًا لنمو الأسئلة ورعياتها، والمدرسة قاتلة للإبداع ومُجهضة له، مما يُؤثر سلبًا على الطالب فيجعله رهنًا لاستحقاقين متضادّين: أحدهما يرتفع به وبإمكاناته العقلية وثانيهما ينخفض به وبإمكاناته الإبداعية. والثالث التعايش مع حالة الانفصام ـ وهذا منوط بدعم الأهل ـ أو تقبّلها عبر مُعايشة الدورين، دون تأثيرات نفسية، بانتظار البحث عن أفق جديد في قادم الأيام، تحديدًا خارج المدرسة.

3- والمجتمع، منوط به ثلاثة أمور لكي يتحوّل هو الآخر إلى

حاضنة كبيرة للإبداع: الأول احتواء جميع السواقي الإبداعية الدافقة من البيوت والمدارس، بحيث تتلاقى جميعها في بؤرة واحدة. فهو الحلقة الثالثة من حلقات إعلان ولادة الإنسان ولادة واعية في الزمن، بعد اكتمال حلقتي: البيت والمدرسة. والثاني تعزيز الحوارات والنقاشات وتمتين بنيانها في المجال العام، وتوسيع دائرتها قدر الإمكان، من خلال تهيئة عقول الناس للفكر الخُلاصاتي والابتعاد قدر الإمكان عن الفكر الخلاصي. والثالث تحرير المجال العام من إكراهات الفكر الخلاصي، أي إثارة النقاش بشكلٍ دائم ومستمر حول سُداسية: 1- الإله. 2- الإنسان. 3- العالَم. 4- الأفكار. 5- الأشخاص. 6- الأشياء. والاستعانة بالخُلاصات المعرفية الكثيرة وعدم الركون إلى أيّ خُلاصة ركونًا نهائيًا، أي تحويلها إلى مسطرة لقياس (نفاسة/ خساسة) الأفكار المُتداولة في المجتمع. بل الكُل شركاء في صياغة شهادة الميلاد المعرفية للإنسان في سياقه العمومي. مقابل ذلك، وفي حال تحوّل المجتمع إلى مجتمع طارد للإبداع بكافة أشكاله وذلك عبر إغلاقه المجال العام حول تفاعل الناس تفاعلًا معرفيًا مع السداسية السابقة وخنق أي نقاش حولها، وأبقى على المجال العام كما هو في صيغته المُتوارثة، فإنّ سلطة الناس تتحوّل إلى سلطة غاشمة

وشرسة في محاربة الإبداع والمُبدعين وذلك بمعاداتهم وتدمير حيواتهم بطريقةٍ فوضوية تفتقد لأيّ مسلكية عقلانية يمكن أن تتبّعها حتى أعتى السُلط، فهي تسير على غير هدى، لذا تكون نتائجها مُدمّرة وعبثية يرقى إلى درجة العبث. فسلطة الشعب أو سلطة المجتمع إذ تبطش بفكرة مُخالفة فهي تبطش بها بقسوة ورعونة، فالاندفاعات غير العقلانية للجماهير الغفيرة، لا تنطوي على حسابات مُسبقة وتُفضي إلى نتائج بعينها، بل تنطلق بطريقة هستيرية ولا يمكن لأحد أن يتنبى بمآلاتها، فهي تنشر الخراب في كل مكان، دون حسبان لمرحلة ما بعد هذا الخراب.(6)

4- والقرار السياسي، منوط به أمران لكي يتحوّل هو الآخر إلى حاضنة كبيرة للإبداع: الأول الاستثمار في الولادة المعرفية للإنسان من خلال تَبَنّي الخُلاصات المعرفية والابتعاد قدر الإمكان عن الفكر الخلاصي. وهذا يتطلب توفير حواضن كثيرة لتفعيل الإبداع من أندية للموسيقى ومعاهد فنية وتمثيلية ومسارح ودور سينما ومخابر للبحث ومدارس لفنون الأداء وملتقيات فكرية وندوات نقدية وأندية قراءة وعمليات نشر وترجمات وبعثات علمية...إلخ. الثاني حماية الخيار الأول بجُملةٍ من التشريعات والقوانين التي تصون المجال العام من الإكراهات والاستلابات

التي يمكن أن تطاله من أصحاب الفكر الخلاصي. أما إذا حدث العكس، أيّ في حال تحوّل القرار السياسي إلى قرار مُهتم بولادة الإنسان البيولوجية أكثر من اهتمامه من ولادته المعرفية، والسيطرة على الولادة الثانية عبر جملة من التشريعات والقوانين التي تحمي أصحاب الفكر الخلاصي الذين يُعزّزون ما هو متوارث ومُسلّم به، ساعتها تدخل الأمة في حالة من السبات الحضاري الطويل. وتتحوّل الحاضنة السياسية إلى بيئة قاتلة للإبداع وليست حامية له، حتى وهي تُدافع عن فكرٍ بعينه، حتى لو كان هذا الفكر فكرًا عقلانيًا بامتياز. فالقرار السياسي بما هو مُستثمر في ولادة الإنسان المعرفية ويعمل على تنمية الخُلاصات المعرفية من جهة، وحمايتها من جهة ثانية، فإنه لا يقع في فخّ إعدام مثل إعدام الحلّاج أو فخّ مثل فخّ إجبار الناس على اعتناق الفكر الاعتزالي. بل يصون المجال العام باسم القانون حتى لا تستأثر أيّ جهة كانت بالسلطة المعرفية، وتحوّلها إلى سُلطة غاشمة باسم القانون هذه المرة.

وعليه، فنحن بإزاء مصفوفة مُكوّنة من:

1- الأسرة.

2- المدرسة.

3- المجتمع.

4- القرار السياسي.

تُنتج الاتجاه الأول (= الاتجاه الجمعي) من اتجاهي تعزيز ولادة الإنسان معرفيًا.

وهي مصفوفة تتحرّك في مسارين أيضًا:

مسار عمودي، ابتداءً من الأسرة وصولًا إلى القرار السياسي، إذ تتدرج عملية ولادة الإنسان معرفيًا وصيرورته مُتفلسفًا من الحاضنة الأولى وحتى البتّ في حماية تلك الولادة سياسيًا.

ومسار أفقي إذ تسير المصفوفة السابقة إلى جانب بعضها البعض ساعة تكتمل حلقاتها. فهي وإنْ كانت تتدرج من النبع الصغير وصولًا إلى المصبّ الكبير، فإنها تسير محاذاة بعضها البعض. فالأسرة المُشهرة لولادة طفلها معرفيًا مُعزّز أساسي لأيّ قرار سياسي، والمدرسة حافز كبير لتنشيط المجتمع وتفعيل مجاله العام على المستوى العقلي. والمجتمع ضامن حقيقي للقرار السياسي، وهكذا في سلسلة تتناوب فيها الأدوار بطريقة أفقية تُنتج اتجاهًا جمعيًا يحترم خيارات الإنسان الإبداعية ويُعزّز موجوديتها عقب ولادته معرفيًا، عبر مسيرة طويلة ومُثمرة إبداعيًا وحضاريًا.

أما ثاني الاتجاهين فهو الاتجاه الفردي، وهو اتجاه مُكمّل لعملية ولادة الوعي والولادة في الزمن أيضًا. ولتحقّق هذا الاتجاه أفضل تحقّق ينبغي أن يتوافر الإنسان على ثلاثة شروط:

الأول: الثقة النفسية أو البناء السيكولوجي للفرد.

الثاني: التوافر على قوةٍ معرفية.

الثالث: التوافر على إمكان إبداعي.

فالثقة النفسية (= الشرط الأول) تحمي الإنسان على المستوى المعرفي من الابتذال للأسلاف من جهة وللأغيار من جهة ثانية. الأسلاف بصفتهم بُناة الهُويّة الجمعية للأمة أو مَنْ رسخّوا كينونة الأمة. فإذا ما شعر الإنسان وهو يجترح نسقًا معرفيًا جديدًا أنه بإزاء شرطٍ قهري يفترض بشكلٍ مُسبق بأن معارف الأسلاف أهم من معارفه التي يُنتجها آنًا، أو ينبغي على معارفه أن تبقى ضمن السقف المُقرّ مُسبقًا، فيقينًا ستنهار ثقته بنفسه ولا يعود ثمة معنى لأيّ نتاج معرفي له.

وإذا ما شعر بانسحاق نفسي أمام الآخر لناحية أن معارفه أمتن وأقوى وأجود من معارفه مهما بلغت درجة تجويدها، فيقينًا ستنهار ثقته بنفسه ولا يعود ثمة معنى لأي نتاج له. فحالته النفسية أشبه

بسرير بروكست Procrustean Bed إذ يجلس عليه مُسبقًا ويُشذّب شخصيته وفقًا لما اصطلح عليه الأسلاف أو وفقًا لما اصطلح عليه الأغيار[7] بطريقة تُخرج معارفه من أيّ حالة إبداعية، فهو غير قادر عبر طرحه المعرفي على تفكيك الأولى (= معارف الأسلاف) وإعادة تدويرها في الأذهان والأعيان من جديد، ولا هو قادر على منافسة الثانية (= معارف الأغيار) في المرحلة الأولى وتتجاوزها في المرحلة الثانية. فالإنسان المُبدع إذا لم يكن بناءه السيكولوجي متينًا منذ اللحظة الأولى، فثمة خلل مُتعدّد ستنطوي عليها العملية الإبداعية برمّتها. فهي ـ أعني الثقة النفسية ـ التي تُؤمن له الشعور بالتساوي الأفقي مع القرناء، تحديدًا أولئك المُنتجين للمعرفة. فلا تجعله يقف تحت من هُم أسلافه بحجّة المُحافظة على هُويّة الأمة وكينونتها الجامعة، ولا تُجعله يقف تحت مُبدعي الأمم الأخرى تحت حُجّة أنهم أقوى معرفيًا بشكلٍ حاسم ومبدئي. بل يسير إلى جنبهم جميعًا، يزاحمهم مزاحمة إيجابيةً لكي يتجاوزهم بشرطه المعرفي القائم، إذ يجترح إبداعًا جديدًا لم يتوافر عليه لا الأسلاف ولا الأغيار.

والقوة المعرفية (= الشرط الثاني) شرط أساسي ومصيري لأيّ فعل تفلسفي، فالمعارف هي المواد الخام التي يبني عليها الإنسان

المُبدع معماره المعرفي كاملاً. إذ تضعه بداية في حالة إلمام بالشرط المعرفي القائم، والأسس الفلسفية القائم عليها، بحيث يُصار إلى تبصّر مثالب تلك الأسس وتجاوزها بطريقةٍ تُفضي إلى نسق فلسفي جديد ـ إن كان يريد ذلك وإن استطاع إلى ذلك سبيلا ـ كما أنها تُؤمّن له متانة كبيرة في مقاربة سُداسية ـ إذا ما أراد مقاربتها أو أيّ من عناصرها ـ الإله/ الإنسان/ العالَم/ الأفكار/ الأشخاص/ الأشياء، فهي عناصر من القوة بمكان ومن السهل أن تصرع من ليس مؤهلاً على المستوى المعرفي لمقاربتها وتبصّر جواهرها وأعراضها.(8)

والإمكان الإبداعي (= الشرط الثالث) شرط أساسي ومصيري هو الاخر لأيّ إبداع، لكن أشير إلى أن الإمكان الإبداعي في الإنسان الفيلسوف ليس حكرًا على المقاربات المعرفية بصيغتها النصيّة، أي لتلك المُشتغلة بالمعرفة الصرفة، بل هي شاملة لجميع مناحي الحياة:

فالنجّار الذي يُريد أنْ يتفلسف بالمواد الأولية التي لديه عليه أنْ يتوافر على شرطٍ إبداعي أو رؤية معرفية عميقة للمواد الأوليّة بين يديه بحيث يكون نتاجه الذي ينتجه، سواء أكان بابًا أم صندوقًا

أم سريرًا... نتاجًا إبداعيًا، تُبنى أساساته على رؤية عميقة. ففن الأرابيسك المصري[9] ينطوي على فلسفة عميقة في التعامل مع الخشب، فكل حركة لإزميل أو دقّة لمسمار صغير تُفضي إلى حركةٍ تالية محسوبة بدقةٍ تقود ـ نهاية المطاف ـ إلى معمارٍ أكبر تجلّى في الواقع، بعد أن اكتمل ـ بشكلٍ مبدئي ـ في الذهن. كذلك تنطوي بعض المنتجات اللطيفة التي تُنتجها شركة آيكيا IKEA[10] على لمسة فنيّة ذات مدلول معرفي عميق.

والموسيقي الذي يُريد أنْ يُفلسف العالَم عبر مقطوعة موسيقية عليه أن ينطوي على إمكان إبداعي يتجاوز حدود الأداء الروتيني أو الأوتوماتيكي إلى ما هو أعمق، بالأحرى منح المقطوعة الموسيقية فلسفة وبُعدًا تأمّليًا وتأويليًا؛ تأمّليًا بما هي حالة جمالية تجعل المرء ينسحب من العالَم الواقعي إليها، فهو ينصت إليها بخشوعٍ تام. وتأويليًا بما هي حالة معرفية يُفضي الإنصات إليها ـ بعد الخروج من حالة الخشوع- إلى تفكيك أبنيتها المعرفية والفلسفة التي قامت عليها. كما يفعل الموسيقي العراقي «نصير شمّا» إذ تحوّلت الموسيقي على يديه إلى منهج حياة. فبين يديه ـ وهي تُمسك الريشة وتُداعب الأوتار ـ تحوّلت كثير من المآسي والآلام الكبيرة[11] إلى لذاذاتٍ بالغة الأثر في تهذيب الذائقة الإنسانية والارتقاء بها فنيًا،

عبر تقديم مقطوعات موسيقية مشغولة بحرفيةٍ عالية.

والمطرب الذي يُريد أن يُغنّي بطريقة مبدعة ينبغي عليه أن يتجاوز فكرة الصوت الجميل والكلام المُبتذل والحركات البهلوانية إلى تزيين هذا الصوت بكلام مُعبّر وعميق. فأغنية مثل أغنية (قديش كان فيه ناس) لفيروز هي نصّ فلسفي يطرح وجهة نظر عميقة تجاه وجودنا في هذا العالَم وتعالقات هذا الوجود مع مقولة الزمن بما هي مبحث أساسي من المباحث الفلسفية. إنها ـ أعني أغنية قديش كان فيه ناس ـ استبصار فني عميق للاغتراب الوجودي الأصيل وهو يتسلّل إلى أرواحنا ويفتك بها مرة تلو الأخرى، فنشحات فيروز وخلجات صوتها المُرتجف وهي تُردّد ترانيم الضياع الأبدي، تُشعِر المرء ـ في المرة الأولى ـ برغبةٍ هائلة بالعودة إلى رحم أمه، بصفته ملاذًا آمنًا من شرور العالَم الذي نعيش فيه. وفي المرة الثانية، تُشعره بأنه يقفز من رحم أمه إلى صلب أبيه ويبقى دفقة ماء منسية هناك، وفي المرة الثالثة تنتابه رغبة كبيرة بأن يقفز قفزة زمنية ويعود القهقرى إلى الوراء، لكي يقتل جدّه لكي لا يُوجد والده، فلا يوجد هو بالتالي على الإطلاق، وفي المرة الرابعة يصرخ المرء أعظم صرخة في حياته: ما أسعدنا في العَدَم؛ أسعدنا على الإطلاق من بقي في العَـدَم المبدئـي. فهي مناقشة ثرة

ـ صحبة موسيقى لذيذة ـ بأسلوب سلس وعميق لواحدة من أعقد القضايا في التاريخ الإنساني.

والروائي الذي يُريد أن يتحوّل إلى كاتب عظيم عليه أن يتجاوز مرحلة سرد الحكاية إلى مرحلة تضمين تلك الحكاية رؤى كبرى، كما عمل الروائي «نجيب محفوظ». ففعل التأويل بما هو فعل عقلي أساسي، سيحضر لحظة قراءة أعمال محفوظ الكبيرة مثل: ملحمة الحرافيش أو ثلاثيته: بين القصرين/ قصر الشوق/ السكرية، أو رواية أولاد حارتنا[12] ويُؤشّر على حكاية تتضمن آليات سردها رؤى كبرى، تُعيد إنتاج سُداسية: 1- الإله. 2- الإنسان. 3- العالَم. 4- الأفكار. 5- الأشخاص. 6- الأشياء. كُلّها معًا أو أحد عناصرها.

والشاعر الذي يريد أن يتخلد في التاريخ عليه أن يتجاوز مرحلة الشعرية المحضة وما يُلازمها من نظم وصفّ للكلام إلى مرحلة الشعرية الفلسفية، إذ تنطوي القصيدة على تبصّر عميق بالحالة الإنسانية وتجلياتها في هذا الوجود. فشاعر مثل «أدونيس» تنطوي أشعاره على بُعد فلسفي عميق، رغم سكبها بقالب جمالي. فديوان مثل ديوانه (تنبأ أيها الأعمى)[13] نصّ معرفي عميق مسكوب في قالب جمالي بديع.

والممثل الذي يُريد أن يصير إنسانًا متفلسفًا عليه أن يحلّ في الأدوار التي يُؤديها حلولًا تامًا بحيث ينسى شخصيته الأصلية، فيلتبس الأمر على الناس ساعة تلقي الدور الذي تُجسده هذه الشخصية. وقد كان لجدتي «حمدة» أن تموت وهي تعتقد أن الممثل «أنطوني كوين» هو «عمر المختار»، فمن كُثر إتقانه للدور الذي أدّاه بحرفية عالية التبس عليها الأمر حتى اللحظة الأخيرة من حياتها.(14)

وصانع القهوة عليه أنْ يُتقن صناعته لكي تتحوّل العناصر الطبيعية بين يديه إلى عملٍ إبداعي ينطوي على امتدادت اجتماعية واقتصادية وسياسية، كما يحدث في طقس إعداد وتقديم القهوة على الطريقة الأردنية أو إعداد وتقديم الشاي على الطريقة اليابانية.(15)

وهكذا في كل دور يمكن أن يقوم به الإنسان طالما هو دور يُعزّز الحق والخير والجمال في هذا العالَم. فالتفلسف، والحالة هذه، ليس مقتصرًا ـ من ناحية ـ على الفيلسوف وحده بل هو حالة عابرة للإنسان أنّى كان موقعه أو صفته الاعتبارية، والتفلسف ـ من ناحية ثانية ـ هو مسار أفقي ليس فيه أفضيلة لأحدٍ على أحدٍ من ناحية قيمية، بل الكُلّ يتمتّع بالأهمية ذاتها طالما أنه يُؤدّي دوره

بإخلاص وإتقان. فالروائية ـ في مقام الإنسان الفيلسوف ـ ليست أهم من الراقص والمطرب ليس أهم من النجّار، والشاعر ليس أكثر أهمية من عازفة البيانو...إلخ، بل الكُل شركاء في تفعيل نشاطهم الحضاري، وما يُميّز بينهم هو تفرّد كل منهم في أداء دوره المُناط به، وتجويد ذلك الدور إلى أقصى حدود التجويد والإبداع.

إذًا، ثمة اتجاهان يُعزّزان ولادة الإنسان على مستوى الوعي ومستوى الزمن:

1- اتجاه جمعي، يحتوي على أربعة روافد تُقوّي هذه الولادة وتُثبّت موجوديتها: 1- الأُسْرَة. 2- المدرسة. 3- المجتمع. 4- القرار السياسي.

2- اتجاه فردي، يحتوي على ثلاثة دعائم ترفع بنيان هذه الولادة وتحوّلها إلى مسلكية مُنتجة في الاجتماع السياسي: 1- الثقة النفسية. 2- القوة المعرفية. 3- الإمكان الإبداعي.

فهذه السُباعية: 1- الأسرة. 2- المدرسة. 3- المجتمع. 4- القرار السياسي. 5- الثقة النفسية. 6- القوة المعرفية. 7- الإمكان الإبداعي.

بإزاء سُداسية: 1- الإله. 2- الإنسان. 3- العالَم. 4- الأفكار. 5- الأشخاص. 6- الأشياء.

بما يُؤكّد ولادة الإنسان ولادة واعية في الزمن، هُنا والآن، وتحوّله من إنسان برسم الوجود إلى إنسان يُفلسف الوجود. فالإنسان إذا ما تجاوز ولادته البيولوجية ووُلِدَ معرفيًا صار فيلسوفًا بالإمكان. وإذا ما أدّى دوره في الحياة ـ أيّ دور يدعم الحق والخير والجمال ـ فهو إنسان مُتفلسف ضرورةً.

لكن، ماذا لو غاب الاتجاه الأول (= الاتجاه الجمعي) أو غاب الاتجاه الثاني (= الاتجاه الفردي)؟ وماذا لو غاب كلا الاتجاهين؟

بغياب أحد الاتجاهين يحدث تشوّه في عملية ولادة الإنسان على المستوى المعرفي، وغيابهما معًا يُميته. فغياب الاتجاه الجمعي يحدث تشوّه عميق في الإمكان الفلسفي الذي ينطوي عليه الإنسان بشكل مُطْلَق، أي لا تعم حالة التفلسف المجتمع برمّته، بل تُصبح أفعال النجارة والغناء والموسيقى والرواية والشعر والرقص والتمثيل وتصينع القهوة أو الشاي... إلى آخر الأفعال الإنسانية ـ ما كان منها فكريًا أو ما كان تطبيقات عملية ـ محض اجتهادات شخصية لأناس يُكافحون في مجتمعات ترفض الإبداع وتُعاديه بشكل مبدئي ومنهجي. فالبيئة التي تفتقد إلى: 1- أُسرة تُدْهَش بأسئلة أطفالها. و2- مدرسة تُوسّع مدارك الطالب المعرفية.

و3- مجتمع يدعم الإبداع بكافة أشكاله. و4- قرار سياسي يصون العلمية الإبداعية بشكلٍ مبدئي. يُفتقد معها الإنسان الفيلسوف على المستوى الجمعي، بحيث يُصبح الإبداع ميزة فردية تُكافح لتبقى على قيد الحياة في مجتمع مليء بالقيود من لحظة الميلاد إلى لحظة الأبد.

وغياب الاتجاه الفردي يحدث تشوّه عميق في الإمكان الفلسفي على المستوى الفردي، فغياب: 1- الثقة النفسية أو البناء السيكولوجي المتين. و2- القوة المعرفية. و3- الإمكان الإبداعي. غياب قسري للفيلسوف المتوتر توترًا أنطولوجيًا، وحضور كبير للكائنات الموتورة سيكولوجيًا، الواثقة بجهلها ثقة مُطْلَقة، والرافضة للإبداع بشكلٍ جذري.

أما غيابهما معًا، فهو إيذان بدخول الأمة في حالةٍ من الموات، إذ يحلّ عليها سُبات حضاري طويل، إلى أن يقوم الفيلسوف من بين الركام والركود الطويلين، ويُوقظ الأمة من غيبوبتها الطويلة.

هوامش الفصل الثاني:

1- يمكن الرجوع إلى خاتمة الفصل الأول، ص54-55.

2- ضربت لنا الكاتبة الكندية «لوسي مود مونتغمري» مثالًا بديعًا في روايتها المميزة (آن الجملونات الخضراء) عن مقدرة طفلة صغيرة على تحويل مجالها الحيوي الذي تتحرّك فيه إلى مجال مُفعم بالروح الإنسانية المُتسائلة، الشغوفة بالحياة، والمُبشِّرة أيضًا بإنسانٍ مُتفلسف، يُمعن البصر والبصيرة في كل شأن من سؤون الحياة. للرواية أكثر من ترجمة باللغة العربية، تعتبر من أكثر الروايات مبيعًا في العالَم.

3- هذه ليست خيارات نهائية، بل هي قابلة للزيادة، فكما أسلفت القارئ شريك حقيقي في صناعة هذا الكتاب.

4- كان فيلم جمعية الشعراء الأموات Dead Poets Society قد رصد هكذا صراع، فالصرعة الإبداعية التي قادها أستاذ اللغة الانجليزية، الذي أدّى دوره الممثل روبرت وليامز Robin Williams وتمثلت بتحفيز الطلاب على التفكير خارج ما هو سائد في النظام التعليمي التقليدي، قُوبلت برفضٍ شديدٍ من الأساتذة والأهالي وصل إلى حد تجريم الأستاذ والتشهير به.

5- الأمر كذلك كما في الهامش رقم 3.

6- كان الروائي التركي «عزيز نيسين» قد رصد في روايته (سرنامة: وقائع احتفال رسمي) تحوّل حدث إعدام إلى حفل بهيج للناس، ففي لحظة

تدفق المشاعر وانطلاقها بطريقة غير عقلانية من جِراب اجتماعي كبير، تمّ تحييد الضمير في التعامل مع مَنْ حُكم عليه بالإعدام، وصار هم من يبيع الفول أن يبيع أكبر كمية من الفول في هذا التجمّع البشري الكبير.

7- سرير بروكست Procrustean Bed يُنسب إلى شخصية في الميثيولوجيا اليونانية، كان يعمل كقاطع طريق، اشتهر بتقطيع أوصال ضحاياه بحيث أَنْ يُصبح مقاسها ملائمًا لمقاس سريره. وبقي يُمارس وحشيته هذه إلى جاء البطل الأغريقي ثيسيوس Theseus وقطع رقبته رقبة بروكست لكي يُصبح مقاسه مساويًأ تمامًا لمقاس سريره المشهور. وبالتقادم أصبح السرير رمزًا مُحمّلًا بالدلالات المختلفة، فكثر من عقول الناس أو المُشتغلين بالحقل المعرفي أشبه ما تكون بسرير بروكست، فهي تُعامل بوحشية كل من لا تتطابق أفكاره مع أفكار صاحب الرأس/ السرير، حتى وهو يدعّي العقلانية والتنوّر.

لمزيد من الأفكار حول سرير بروكست وربطه بهذا المجال يمكن مراجعة كتاب (المغالطات المنطقية) للدكتور عادل مصطفى الصادر عن المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة سنة 2007، من الصفحة 249 إلى الصفحة 263.

8- يمكن الرجوع إلى مقالة (من التفلسف الحضاري إلى تفتيت الخطاب الثقافي)، معاذ بني عامر، مجلة أفكار، وزارة الثقافة الأردنية، العدد 381، ص ص 26 - 31.

9- كانت الدراما المصرية قد أنتجت مسلسل (أرابيسك) في تسعينيات القرن الماضي عن فن الأرابيسك المصري، وهو من تأليف الكاتب أسامة أنور عكاشة.

10- للتعرف على بعض من نماذج المنتجات التي تُنتجها شركة آيكيا يمكن مراجعة الموقع الإلكتروني للشركة.
/https://www.ikea.com

1- كما حدث في مقطوعته عن ملجأ العامرية الذي احترق وترمّد بداية تسعينيات القرن الماضي في العراق.

11- صدرت روايات نجيب محفوظ بطبعات مختلفة، لكن يكمن الرجوع إلى طبعة دار الشروق في القاهرة، فهي طبعات واضحة ومميزة.

12- يمكن الرجوع إلى الطبعة الثانية من ديوان (تنبأ أيها الأعمى) لـ «أدونيس» الصادرة عن دار الساقي في بيروت سنة 2005.

13- عربيًا اشتهر الفيلم باسم عمر المختار نسبة إلى المقاتل الليبي عمر المختار الذي حارب الجيش الإيطالي لسنوات طويلة إبّان احتلالها لليبيا الذي ابتدأ في العام 1911م. وغربيًا اشتهر الفيلم باسم Lion of The Desert. وقد أدّى الممثل أنطوني كوين Anthony Quinn دور عمر المختار، والفيلم من العلامات البارزة في مسيرة المخرج السوري مصطفى العقاد.

14- للاستزادة يمكن الرجوع إلى مقالة (طقس الشاي: من جبال عجلون إلى مرتفعات الهيملايا) لـ «معاذ بني عامر»، المنشور في جريدة الغد الأردنية بتاريخ 18/ مايو/ 2017م.

https://alghad.com/%D8%B7%D982%%D8%B3-%D8%A7%D984%%D8%B4%D8%A7%D98%A%D98%5%D986-%%D8%AC%D8%A8%D8%A7%D984-%%D8%B9%D8%AC%D984%%D988%%D986-%%D8%A5%D984%%D989-%%D985%%D8%B1%D8%AA%D981%%D8%B9%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D984%%D987%/

الفصل الثالث

الفيلسوف

استكمالًا للنسق الذي يقوم عليه هذا الكتاب، فإننا سنتقصى في هذا الفصل عمليتي: الولادة والموت للفيلسوف، على اعتبار أنه الحلقة الثالثة في سلسلة الإنسان المُتفلسف، بعد حلقتي: الطفل بما هو أقل من فيلسوف، والإنسان الفيلسوف. متى يُولد الفيلسوف، أو ما هي الشروط الضرورية اللازمة لكي يُولد في العالَم؟ وهل هو حالة استثنائية لكي يُولد ولادة احتفائية؟ وكيف يموت أو بالأحرى لماذا يموت، وهل يُعتبر موته حدثًا تراجيديًا في تاريخ الأمم والشعوب؟ وبين هذا وذاك، ما هي المهمة التي يضطلع بها الفيلسوف على نحو مخصوص؟

إنّ نسق هذا الكتاب نسق مزدوج ضرورةً:

الأول عمودي، يبتدئ من الطفل ليس لناحية أنه صغير بالسن وينبغي استغلاله والاستهانة به والركوب على ظهره اقتضاء لواقع النسق العمودي، بل بصفته الفترة المُبكّرة من الشخصية الاعتبارية للإنسان المولود ولادةً واعية في الزمن، ثم تنمو عضلات هذه

الطفولة المعرفية أو الفترة المُبكّرة من مشروع الإنسان المُتفلسف ويشتدّ عودها وتبرز، فيرتفع الطفل بما هو أقل من فيلسوف درجة فيُصبح إنسانًا فيلسوفًا ساعة يدخل في تمرينات عقلية أكثر تطوّرًا وبشكلٍ جماعي ينشط أو يتجلّى عبر عملية إبداعية كبيرة وشاملة، ثم تنمو عضلاته العقلية مرة أخرى وتصبح أكثر بروزًا وتتحوّل إلى قوة عاتية، فتحدث عملية فرز كبيرة، فالتمرين الذهني يُصبح أكثر قسوة ومشقّة، فلا تصمد إلا القلّة القليلة على تلك التمارين الشاقّة، فتحلّ الخبرات جميعها التي تكوّنت في مرحلة الإنسان الفيسلوف على المستوى الجمعي وتقرّ في الفيلسوف على المستوى الفردي هذه المرة. ثم تجنح هذه القوة ناحية الداخل ـ بعد أن تكون قد اتجهت ناحية الخارج على يد الفيلسوف ـ فيصير الفيلسوف حكيمًا أو بما هو أكثر من فيلسوف.

الثاني أفقي، إذ تنتظم رُباعية: 1- الطفل بما هو أقل من فيلسوف. 2- الإنسان الفيلسوف. 3- الفيلسوف. 4- الحكيم بما هو أكثر من فيلسوف. إلى جانب بعضها البعض لإعلاء شأن الإنسان على المستوى الواعي في الزمن، وتجعله ينشط من لحظة ميلاده المادي إلى لحظات بقائه معنويًا حتى بعد موته. أي أنّ الإنسان إذ يُولد ـ وفقًا للنسق الأفقي ـ ولادة واعية في الزمن،

فإنّ هذه الولادة تتجسد عبر أدوار أربعة كما تفترض أطروحة هذا الكتاب، لكلّ منها ميزته الخاصة وبصمته الواضحة: أولها الطفل بما هو أقل من فيسلوف، وثانيها الإنسان الفيلسوف، وثالثها الفيسلوف، ورابعها الحكيم بما هو أكثر من فيلسوف.

من هنا، فإنّي سأعرّف الفيلسوف تعريفين ينسجم الأول مع كونه ـ أعني الفيلسوف ـ حلقة في سلسلة عمودية، تراكمية مُتَّصِلَة، والثاني ينسجم مع كونه شخصية اعتبارية، أفقية مُنفصلة عن تِلكم السلسلة.

التعريف الأول تعريف تراكمي ينسجم مع مقتضيات النسقية العمودية للكتاب. فالفيلسوف بمعنى من المعاني نتيجة ضرورية للإنسان الفيلسوف الذي بسطتُ له في الفصل السابق، أو هو تطوّر طبيعي لحالة التفلسف التي يعيشها المجتمع بكافة أطيافه، لكن على المستوى الفردي هذه المرة. وقد قدّم «أحمد زهاء الدين عبيدات»[1] تعريفًا مُلائمًا لهذا المقام، فـ «الفلسفة [بما هي تجسيد لشخصية الفيلسوف الاعتبارية] تأملٌ معمق في معانٍ جلية، متسقة، متحققة، ذات مناهج مُراجعة، تطلب جمالا، وخَيْراً، في سياق انفعال بثقافات محلية وعالمية، لبلوغ الثروة والعدل. وعليه

فالفلسفة ليست عدواً للدين أو صنواً للعلم أو بديلاً عن الأدب، لأن الدين لا يكتفي بنفسه فيحتاج فلسفة للدين، والعلم لا يمتلك نظرية تلم أركان مباحثه الفرعية فيحتاج لفلسفة للعلم، والأدب عَمِيٌّ عن رؤية نفسه فيطالب بفلسفة للأدب. حتى الفلسفة تفتقر لنفسها فتشرع في التأمل في فلسفة للفلسفة. الفلسفة على هذا التصور سماء غير متناهية تبتلع هذه المجرات جميعاً وتَعْلُو عليها لتولِّف بين معطيات كل طرف منها. ولا يمكن للفلسفة أن تفعل هذا ما لم تكن تحليلاً وتوليفاً لجماع العلوم العقلية والطبيعية والإنسانية والاجتماعية».[2]

وهو تعريف يقترب من تعريف ماريو بونجي Mario Bunge، فـ «الرأي عندي أن أي فلسفة جديرة باسمها هي رؤية للعالم واضحة وجيدة التنظيم بدلا من أن تكون مجموعة من الآراء المتفاوتة في هذا الموضوع أو ذاك. وأتوقع أن يخبرني الفلاسفة بشيء مهم عن العالم، إلى جانب شيء عن معرفتنا به او مكانتنا فيه.[3]

أيْ أن الفيلسوف إذ يضطلع بدوره المنوط به في مجتمع مُتفلسف فإنّ الأداء المطلوب منه بما هو مُشتغل بالمعرفة، هو إتقانٌ دوره على أكمل وجه، وذلك بأن يتحوّط على جُملةٍ من المعارف المُتعدّدة

لكي يُقدّمها ضمن نسق: مُتسّق، واضح، شامل. فهو إذ يتعامل مع مسألة من المسائل الفلسفية، فعليه أن يرى أثرها وتأثيرها في جُملة من المعارف الأخرى، نفسية، اجتماعية، اقتصادية، سياسية، ضمن إطار منطقي واضح وشامل، وبصياغات واضحة وغير مُلتبسة. فالفيلسوف بإزاء هذا التعريف هو إفراز حتمي لمجتمع مُتفلسف، فعلى المستوى الفردي عليه أن يتمثّل قوة سُباعيةً: 1- الأسرة. 2- المدرسة. 3- المجتمع. 4- القرار السياسي. 5- الثقة النفسية. 6- القوة المعرفية. 7- الإمكان الإبداعي. إذ تحلّ في فردٍ واحد يُجسّده الفيلسوف في هذا المقام الذي يُعْمِل معول معارفه في سُداسية: 1- الإله. 2- الإنسان. 3- العالَم. 4- الأفكار. 5- الأشخاص. 6- الأشياء. أيّ أن يُقدّم وجهة نظر شاملة تجاه السُداسية أو أحد عناصرها، فلو أراد أن يُقدّم أطروحة معرفية عن المبحث الميتافيزيقي أو عن المُدونة الأخلاقيّة ـ وهي مباحث ترجع في نهاية المطاف إلى أحد عناصر السُداسية السابقة ـ فعليه أن يُلمّ بالمبحث المطروح من جميع جوانبه، لكي يُقدّم نسقًا مُتكاملًا، لكن ليس بالضرورة أن يُقدّم إزاحة معرفية حقيقية، تحدث على إثرها ـ آجلًا بالأحرى ـ فيما يتعلق بتلك السُداسية أو أحد مكوناتها، فمهمته وفقًا لذلك التعريف تنحصر في إلمامه بالعلوم الأساسية

لتبصّر المبحث الذي يعمل عليه. فالفيلسوف والحالة هذه مُثقّف موسوعي يبسط لمعارفه الواسعة في متنٍ شامل، منطقي، سلس، نسقي. فهو جامع لعديد علوم في فهم الظاهرة المبحوثة تتسّم بالشمول. يتم تفريغها ضمن قالب منطقي ينطلق من الخاص إلى العام أو العكس لتلتئم المُقدّمات والنتائج ضمن سياق متصّل. بلغةٍ واضحة وشفّافة وسلسة ولا تنطوي على أي التباسات أو ألعابٍ لغوية مُربكة. بما يُفضي هذا: 1- الشمول.2- المنطق. 3- السلاسة. إلى: 4- نسقٍ مُتكامل.

وهذا منسجم مع الطبيعة التصاعدية، التراكمية للإنسان المُتفلسف كما تفترضها النسقية التي يقوم عليها هذا الكتاب حتى هذه اللحظة، فالفيلسوف وفقًا للبسط السابق هو تطوّر ضروري للإنسان الفيلسوف وحلول فيه بشكلٍ فردي. إذ يزداد قوة معرفية تؤهله لأن يرتقي عموديًا في سلسلةً تطوّر الإنسان المُتفلسف. فهو إذ يُحكم قبضته المعرفية على القضية التي يتناولها بالبحث والمُدارسة فإنه يُطبق عليها إطباقًا كاملًا ومن جميع الجهات، بما يُجوّد بحثه ومُدارسته ويرفع من قيمتها ويجلعها مرجعًا لغيره من البحّاثة والدارسين. لذا فإنّ الفيلسوف في هذا المقام– ليس مُنفصلًا عن الإنسان المُتفلسف، بقدر ما هو مُتصّل به، لكنه

أكثر جودة واحترافية وتفوقًا وطولًا أيضًا! ففي بيئة تُعزّز ولادة الإنسان الواعية في الزمن، عبر توفير الشروط اللازمة للعناية بتلك الولادة أكمل عناية، من أسرة ومدرسة ومجتمع وقرار سياسي على المستوى الجمعي، وثقة نفسية وقوة معرفية وإمكان إبداعي على المستوى الفردي؛ شيء طبيعي أن يُوجد الفيلسوف وفقًا للتعريف السابق. فهو ـ أعني التعريف السابق ـ استحقاق لتلك البيئة التي مرّت بأطوار كبيرة إلى أن وصلت إلى حالة اعتناء كاملة بالإنسان بما هو إنسان معرفي بالدرجة الأولى.[4]

أيضًا، وفقًا لنسقية الكتاب الأفقية هذه المرة، فإنّ الفيسلوف شخصية اعتبارية مُنفصلة لها كيانها الخاص، بما يُوجب العودة إلى التعريف الذي سُقته بداية هذا الكتاب وأشرتُ إلى أني سأعود إليه لاحقًا في فصل الفيلسوف. فالفلسفة ـ مرة أخرى بما هي تجسيد لشخصية الفيلسوف الاعتبارية ـ هي «العلم بالأسباب القصوى وفقًا لتعريف أرسطو أو أنها الوقوف على حقائق الأشياء كلها على قدر ما يمكن الإنسان أن يقف عليه، وفقًا لتعريف ابن سينا».[5]

لكن، أين الفرق بين التعريف أعلاه الذي أورده «أحمد زهاء الدين عبيدات» أو أشار إليه ماريو بونجي Mario Bunge،

والتعريف الذي ذكره «جميل صليبي» في المعجم الفلسفي؟ فالفلسفة إذ تتجسد في نسق: شامل، منطقي، سلس، فإنّ ذلك لا ينفي أن يكون اشتغال صاحبها على الأسباب الأولى أو الرئيسية التي يقوم عليها النسق المبحوث أو المدروس؛ بل يُفترض به أن يكون كذلك. فالفيلسوف إذ يسعى إلى بحث قضية من القضايا فأَوْلَى به أن يسعى إلى تبصّر الأسس الأصلية التي تقوم عليها تلك القضية ووضعها في نسق شامل من ثمَّ. مع مراعاة أن نسقه ليس بالضرورة أن يكون شاملًا، بل الأصح أن لا يكون شاملًا، لكي ينتقل من مرحلة الفيلسوف بما هو تطوّر تراكمي عن الإنسان الفيلسوف إلى مرحلة الفيلسوف الخالص. أو لكي ينتقل من مرحلة الفيلسوف بما هو باحث موسوعي يشتغل على عدّة جبهات إلى فيلسوف يشتغل على جبهة واحدة، يُركّز عليها مجهوده المعرفي كاملًا.

لكن ـ مرة أخرى ـ لا يعني تركيز الفيلسوف على الأسباب الأولى أو القصوى لقضية من القضايا أن صاحبها حال من فيلسوف إلى مُتفلسف كما أشرتُ في مقدمة هذا الكتاب[6] فتبصّر قضية من القضايا أو مسألة من المسائل والتعرّف على أصلها المبدئي قد ينسجم مع حسٍّ بحثي يلتزم بالبروتوكولات

المدرسية التي تُعلّمها أقسام الفلسفة، بحيث يصعب التفريق بين دارس للفلسفة أو آخر. إذ تتشابه مقارباتهم وتتخذ الهيئة الأكاديمية ذاتها، فقائل يتحدث عن الأسباب الأصلية التي يقوم عليها معمار هذا العالَم، دون إحداث إزاحة معرفية في مفاهيميتها، وآخر يتحدث عن الأسباب الأصيلة التي تجعل من المعرفة صادقة وقابلة للتحقّق، لكن دون تغيير في طبيعة تلك المعرفة. إذ يبقى الفيلسوف وفيًا لنسق مفاهيمي قائم، دون اجتراح جديد على المستوى المعرفي. وهذا بطبيعة الحال لا يعني عدم الاستفادة مما يقدمه، فتبصّر فيلسوف أو باحث موسوعي بقضيةٍ ما كالفلسفة التي تقوم عليه اقتصادات العالَم أو أديان العالم، قد تُفيد في وضع الخطط والاستراتيجيات، وتجعل من الأمة قوية بسبب امتلاكها لتلك المعارف التي يصطلح عليه جُملة من الفلاسفة أو البحّاثة الموسوعيين. لكن ذلك لا يعني بحالٍ من الأحوال أن الفيلسوف يتفسلف انطلاقًا من صفته الاعتبارية كفيلسوف يمتلك شخصية مُبرّزة في هذا العالَم. بل ما يقوم به الفيلسوف في هذا المقام محض تراكم معرفي انتقل بموجبه من مرحلة الإنسان الفيلسوف كما تجلّت بشكلٍ جمعي، إلى مرحلة الفيلسوف لكن على مستوى احترافي وفردي هذه المرة. وشيء طبيعي أن يحدث هذا في الحضارة

الغربية التي تناوبت عليها أجيال كثيرة، ابتداءً من ديكارت بما هو لحظة تحوّل كبرى في التاريخ المعرفي الغربي، وصولاً إلى التطبيقات العلمية التي يمكن أن نجد نسختها الأحدث في الولايات المتحدة الأمريكية. أي أنه شيء طبيعي أن نجد هذا التدرّج في الحضارة الغربية لناحية الانتقال من مرحلة الفيلسوف ـ كما دشنّها ديكارت وثلّة من أقرانه في عصر الأنوار الغربي ـ الخالص إلى مرحلة الباحث الموسوعي أو الفيلسوف وفقًا للصيغة التي تصطلح عليها آنًا الفلسفة التحليلية[7] أو تلك التي أشار إليها أحمد زهاء الدين عبيدات أو ماريو بونجي، إذ يضطلعُ مَنْ يُطلق عليه لقب فيلسوف ـ وهو شيء مدرسي ينطبق على كل مُتخرّج من أقسام الفلسفة ـ بمهمة إعادة إنتاج العالَم، وليس مهمة تأويل العالَم كما يمكن أن يفعل الفيلسوف، كما أتناوله في هذا الفصل.

إذًا، الفيلسوف بما هو مولود ولادة قصوى على مستوى الوعي، فإنه يضطلع بمهمة تأويل العالَم، وكل من عداه يُعيد إنتاج هذا العالَم. فهو يضع الأسس المعرفية لثُلاثية: 1- الإله. 2- الإنسان. 3- العالَم؛ ويمنحها مفاهيمية جديدة غير تلك التي كانت عليها قبل ولادته أو قبل وجوده في العالَم. فالفيلسوف هو أكبر هادم للأبنية المعرفية

في العالَم وأكبر بنَّاء للأبنية المعرفية أيضًا. لذا فإنّه أكثر مذموم ـ على الأغلب ـ طالما هـو على قيد الحيـاة، وأكثـر محمـود ـ عـلى الأغلـب ـ بعد موته. مذموم لأنه يهدم معارف قارّة وثابتة في الأذهان والأعيان، ومعه يهدم المكوّن الهُويّاتي الذي يُشكّل المرجعية التي يحتكم إليها الناس في تعريف ذاتهم الكُليّة، أو بمعنى آخر هو الذي يهدم المعرفة التي تُشكّل كينونة الأمة التي تكوّنت على مدار أزمان طويلة. فكينونة الأمة التي ينبغي عليها أن تقرّ على ثلاثة أركان: 1- الإله. 2- الإنسان. 3- العالَم. يأتي الفيلسوف ويُفنّد الصيغة المعرفية القائمة لتلك المفاهيم وفي طريقه لتفنيدها وتبصّر معمارها يهدمها ويترك الناس حيارى بإزائها. وفي فترة اضطرابهم هذه تحدث مشادّات ومشاحنات قد تؤدّي إلى قتل الفيلسوف كما حدث مع سُقراط أو مطاردته كما حدث مع ديكارت أو حرق أوراقه كما حدث مع ابن رشد... إلخ. فالفيلسوف إذ يهدم معارف قارّة وقائمة تُشكّل مرجعيات كبرى في العالَم، فإنّه يُذمّ من قبل الغالبية العظمى من الناس، إلى أن تبدأ أفكاره الجديدة أو الأفكار التي أقام معمارها بعد أن هدم المعارف السابقة، بالانتشار شيئًا فشيئًا، إذ يبدأ الناس باكتشاف أهميته، فيتم إحياؤه من جديد حتى بعد مماته. فسُقراط تحوّل بالتقادم إلى واحد من أعظم فلاسفة

التاريخ الإنساني، وقد بدأ يظهر تأثيره الواضح عقب فترة قصيرة من موته، تحديدًا عبر تلميذه الفذ أفلاطون. وديكارت الذي رُفضت فلسفته من غالبية جامعات أوروبا وهو على قيد الحياة، تحوّل بالتقادم إلى رائد عصر التنوير بامتياز. وابن رشد الذي شهد اضطهادًا هائلًا وعاش محنة تدمير الكثير من مؤلفاته من قبل أبناء جلدته، سيتحوّل إلى منارة في طريق نهضة أوروبا الحديثة.

بمعنى آخر، في طريقه إلى هدم المعارف القائمة حول ثُلاثية: 1- الإله. 2- الإنسان. 3- العالَم. فإنّ الفيلسوف:

1- يُحْدِث شرخًا في بنيته الروحية، فهو إذ يأتي على المفاهيم القائمة فإنّه يأتي على قواعدها، فتتداعى وتنهدم، لذا فإنه أول من يذوق مرارة السقوط والتيهان بعد أن كان مثله مثل الناس قارًّا ومطمئنًا في كينونة تؤمّن له وللناس الأمن والحماية والملاذ.

2- يُحدث بلبلة في عقول الناس بعد أن يهدم قواعد معارفهم القائمة حول الثلاثية العتيدة، فتختلط الأمور في عقولهم وتتبلبل.

3- يمسّ مشاعر الناس ويلمس أعمق مكوناتهم، لذا تختلط عقلانيتهم بغرائزهم، وفي غمرة هذا الاختلاط يمكن أن يُقتل الفيلسوف ـ إذا لم يتوافر على حماية ما ـ أو يُنفى أو يُطارد أو تُحارب كتبه أو تُتلف.

4- يجترح مفاهيمية جديدة لثلاثية: 1- الإله. 2- الإنسان. 3- العالَم. ويُعيد تأويل العالَم وفقًا لمفاهيمية الجديدة أو بالأحرى يُراهن على أن العالَم سيقوم قيامته الجديدة أو يبني معماره من جديد استنادًا على الأسس المعرفية التي يُقدّمها لتلك الثلاثية.

بإزاء هذه: 1- البلبلة الروحية على مستوى الذات. 2- البلبلة في عقول الناس. 3- مسّ مشاعر الناس. 4- اجتراح مفاهيمية جديدة تُقدّم تصوّرًا جديدًا للعالَم. تبرز الشخصية الاعتبارية للفيلسوف في الوجود على المستوى النصيّ، أي على مستوى النصّ المعرفي الذي يُقدّم فيه أطروحته الفلسفية. وشيئًا فشيئًا يتنزّل هذا النصّ من ذهن الفيلسوف إلى أذهان الناس، فتبدأ عملية إحياء الفيلسوف عقب وفاته، بعد عملية إماتة أو تهوين أو إهانة أو تهميش أو تسخيف أو استبعاد أو محاربة له، قد تُمارَس بحقّه وهو على قيد الحياة. فالفيلسوف يُعيد تأويل العالَم، عبر طرح مفاهيمية جديدة لثُلاثية: 1- الإله. 2- الإنسان. 3- العالَم. ثم تعمل البقية على إعادة إنتاج العالَم، استنادًا إلى التأويل الذي يجترحه الفيلسوف. فالثُلاثية إذ تتنزّل من عقل الفيلسوف إلى عقول الناس تتجسد في ثُلاثية: 1- الأفكار. 2- الأشخاص. 3- الأفكار. ومع هذا الوصل بين العقل الفلسفي وبقية العقول، يتجلّى الإبداع ويأخذ أشكالًا لا

حصر لها، من آداب وعلوم ومعارف وفلسفات وفنون ومهارات، ويبقى الأمر على ما هو عليه إلى أن يأتي فيلسوف آخر ويهدم ما بناه الفيلسوف الأول، ويُعيد تأويل العالَم مرة أخرى. وهذا الحدث الخاص بالفيلسوف لا يجعله يعتلي على الناس أو يُفضّل عليهم أو يُدخله في نوعٍ من الأنانية المَرضيّة، بل هو نوع من التضحية الحضارية الجسيمة التي يضطلع بها الفيلسوف نظرًا لتوافره على إمكان (نفسي/ معرفي/ إبداعي) هائل، لغاية استدامة العطاء الإنساني، وعدم دخول البشرية في حالة من الانتحار الحضاري. فذهابه إلى خيار إعادة تأويل ثُلاثية: 1- الإله. 2- الإنسان. 3- العالَم. وما يستلزمه هذا التأويل الجديد من: بناء سيكولوجي متين وعتاد معرفي مكين وإمكان إبداعي نادر؛ أشبه ما يكون بالمُقامرة التي يُقامر فيها بحياته الشخصية، فطالما هو يشتغل على تحريك الجواهر التي يقوم عليها معمار الوجود الإنساني، فإنّ حياته تبقى مُهدّدة على الدوام إذ يمكن لأيّ أحمق أن يُرديه قتيلا إذ يعجز عن استيعاب ما يأتي به، نظرًا لقصوره المعرفي. أو يمكن للسُلطة أن تُعاقبه فالتأويل الجديد سيُطيح بها من كل بُدّ في قادم الأيام. أو يمكن أن ينهش الجهلة لحمه إذ تفتك به سُلطة الناس وتمارسه بحقّه أقسى أنواع النبذ الاجتماعي.

إذًا، الفيلسوف كما يطرحه هذا الكتاب، أعني الفيلسوف الذي يُعيد تأويل ثُلاثية: 1- الإله. 2- الإنسان. 3- العالَم. هو أصل العالَم ونبعه الأصلي، فهو إذ يصل إلى الحدود القصوى أو الأسباب الأصلية التي يقوم عليها معمار هذا العالَم، فإنه لا يصل إليها لكي يقول لنا ما هي تلك الأسباب القصوى، أو يُقدّم مقاربة معرفية تبحث في حيثياتها، بل يعمل أيضًا على:

1- هدم ما هو قَارٌّ وثابت معرفيًا عن الثلاثية السابقة، نظرًا لعدم صلاحيته ما هو قائم في للعصور الحديثة. بما يجعل من حالة التفلسف معولًا هائلًا تُضرب به القواعد المتينة التي يقوم عليها معمار الأمة الهُويّاتي، فيسوّيه بالأرض بعد أن يهدم أركانه.

2- بناء معمار معرفي جديد وكامل يُفترض صلاحيته للعصور الحديثة. إذ لا يكفي أن يكون الفيلسوف هادمًا للمعارف فقط، وإلا لتحوّل إلى عابث بروح العالَم، بل ينبغي عليه أن يجترح نسقًا معرفيًا متينًا يُقدّم فيه متنًا متماسكًا ومُحكمًا حول الثلاثية السابقة، وأن يُعيد تعريف كل عنصر من عناصرها الثلاثة تعريفًا جذريًا، بحيث تتسّق مع بعضها البعض لتُشكّل كُلًا مُتكاملًا.

وعليه ـ كخاتمةٍ لما نحنُ بصدده في هذا الفصل ـ فالفيلسوف هو حالة (اتصال/ انقطاع) في سلسلة الإنسان المُتفلسف.

حالة اتصال لحالةٍ معرفية تراكمية تجعل منه باحثًا موسوعيًا، مُلمًّا بالأسباب القصوى لأيّ ظاهرة يتناولها بحثًا ومُدارسةً، لكن مع إمكان عدم قدرته على إحداث إزاحة معرفية في جوهر تلك الأسباب، بما يُبقي على مفاهيم الثُلاثية الناظمة لمجمل النشاط الإنساني في الزمن والمكان، ضمن القارّ والثابت والمُتفّق عليه.

وحالة انقطاع لحالةٍ معرفية كاملة، واجتراح كامل لمعرفة جديدة، بما يُحدث بلبلة في مفاهيم ثُلاثية: 1- الإله. 2- الإنسان. 3- العالَم. ويُعيد تأويلها من جديد، أي يمنح وجودها صبغة وراثية جديدة، تُغيّر جوهرها تغييرًا كاملًا.

أو بلغة أخرى، الفيلسوف في هذا المقام نسختان:

نسخة أصلية لا تمسّ أو تلمس الأسباب القصوى فحسب، بل تهدم البنيان المعرفي لتلك الأسباب القصوى أيضًا وتُعيد بناءها من جديد.

ونسخة تقليدية تمسّ أو تلمس الأسباب القصوى لكنها لا تقدر على إحداث إزاحة جوهرية فيها.

هوامش الفصل الثالث:

1- أحمد زهاء الدين عبيدات أستاذ جامعي في جامعة Wake Forest.

2- أحمد زهاء الدين عبيدات، بين الفلاسفة القاريين والأنجلوفنيين: الاستطلاع الفلسفي العربي بين عبودية التقليد والعمل الاستخباري، مجلة المخاطبات، العدد 34، أبريل 2020، ص 117.

3- ماريو بونجي، العقل والمادة: بحث فلسفي، ترجمة صلاح إسماعيل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1 ، 2019، ص 80.

4- كونه إنسانًا معرفيًا لا يعني أنه إنسان أخلاقي. وهذا جزء مما سأبسط له في كتابي (التفلسف الحضاري: إعادة إنتاج العالَم).

5- جميل صليبي، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص 160.

6- يمكن الرجوع إلى مقدمة الكتاب للتعرّف أكثر على الفرق بين الفلسفة والتفلسف.

7- للتعرّف أكثر على الفلسفة التحليلية يمكن الاطلاع على كتاب (الفلسفة التحليلية: ماهيتها، مصادرها، ومفكروها) لـ أحمد عبد الحليم عطية. الصادر عن المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، لبنان، ط1، 2019. وللتعرّف بشكل مختصر على الفلسفة التحليلية يمكن الاطلاع على مقالة: (الفلسفة التحليلة الانجليزية) لـ علي محمد اليوسف، نشر موقع شبكة النبأ المعلوماتية على الرابط التالي
https://annabaa.org/arabic/anthropology/25536

الفصل الرابع

الحكيم بما هو أكثر من فيلسوف

وفقًا لتراتبية هذا الكتاب فإنَّ الحكيم بما هو أكثر من فيلسوف، يأتي في المرتبة الرابعة بعد:

1- الطفل بما هو أقل من فيلسوف.

2- الإنسان الفيلسوف.

3- الفيلسوف.

4- الحكيم بما هو أكثر من فيلسوف.

فهو امتداد طبيعي لنسقية هذا الكتاب، إذ يُعْتَبَرُ الحكيم، ذروة سنام النشاط الإبداعي للإنسان، تحديدًا مرحلة ما بعد ولادته ولادة واعية في الزمن. فهو يتمثّل أو يتحقّق تحقّقه الأخير في هذا العالَم في شخصيةٍ اعتبارية تسعى إلى تكوين ـ كما أشرتُ في موضع سابق من الكتاب ـ[1] رؤى كُبرى (من) تفاصيل صغرى، وتكوين رؤى كبرى (عن) تفاصيل صغرى.

السؤال المطروح: ما معنى تكوين رؤى كبرى (من) تفاصيل

صغرى، وبالمثل ما معنى تكوين رؤى كبرى (عن) تفاصيل صغرى؟

قبل أن أجتهد وأقدّم إجابتي على هذين السؤالين، أريد أن أقدّم لتفصيل منهجي مُتعلق بالإنسان المُتفلسف على اعتبار أنه وفقًا لنسقية العمودية هذا الكتاب، فإنه يشمل الإنسان حتى غير المشتغل بالمعرفة. فالمثال الذي أوردته في فصل (في مديح التفلسف) لناحية تأثّري في كتابة فصل (الحكيم بما هو أكثر من فيلسوف) بنموذجين أحدهما الراهب البوذي «شونميو ماسونو» وثانيهما خالي «إبراهيم الموسى». الأول لديه معرفة اختصرها على هيئة شذرات حكيمة في كتاب (فن الحياة البسيطة)[2] وثانيهما رجل ليس لديه أي ثقافة لكنه توصّل إلى حياةٍ حكيمة بالممارسة العملية، أو ما أُسميّه عادة الفرق بين الثقافة كمنزع إبيستمولوجي وبين الوعي كمنزع أنطولوجي، الأول (= المنزع الإبيستمولوجي) تمثّله الراهب البوذي والثاني (= المنزع الأنطولوجي) تمثّله خالي «إبراهيم الموسى». فذروة هذا الكتاب تقتضي وفقًا للنسقية التي تمثّلها منذ البداية أن يشمل الإنسان بمعناه الواسع، طالما هو داعٍ للخير والحق والجمال، سواء أأنبثق الحق أو الخير أو الجمال عن إنسانٍ مُشتغل بالمعرفة أم لا. فتجاوز الكتاب منذ البداية للفلسفة

المحضة وتموقعه في التفلسف، جعل خالي «إبراهيم الموسى» وكل مُشابهيه على هذه الأرض يرفدون هذا الكتاب برافدٍ عظيم؛ أو يرفدون مشروع التفلسف الإنساني برافدٍ عظيم. ففي الأخير، في نهاية المطاف، يمكن للحكمة ـ بما هي ذروة النشاط الإبداعي للإنسان في الزمن والمكان ـ أن تتجسّد في أيّ إنسان يتفلسف وتُفضي فلسفته الحكيمة إلى الحقّ أو الخير أو الجمال. وليس شرطًا في هذا التجسّد أن يأخذ طابعًا معرفيًا يتمظهر في نصٍّ ما، بل الأكثر حكمة أن يتجاوز ما هو معرفي إلى ما هو وجودي. من أعلى قمة في الرأس إلى أعلى قمة في العالَم؛ ومن مركزية الجسد بصفتها مُجسّدة للحكيم المعرفي إلى مركزية الأرض بصفتها مُجسّدة للحكيم الأنطولوجي.

إذًا، التفلسف ـ كما يطرحه هذا الكتاب ـ مشروع ينسجم مع فكرتي:

تكوين رؤى كبرى (من) تفاصيل صغرى.

تكوين رؤى كبرى (عن) تفاصيل صغرى.

الفكرة الأولى (تكوين رؤى كبرى من تفاصيل صغرى) تصدر عمن يبحث عن إنتاج جديد للعالَم انطلاقًا من بنية معرفية.

والفكرة الثانية (تكوين رؤى كبرى عن تفاصيل صغرى) تصدر عمّن يبحث عن إنتاج للعالَم انطلاقًا من بنية وجودية. أو بلغة أخرى، إنّ تكوين رؤى كبرى من تفاصيل صغرى تصدر عن إنسان مُشتغل بالمعرفة، وتكوين رؤى كبرى عن تفاصيل صغرى تصدر عن إنسان مشغولٍ بالوجود.

الأولى (تكوين رؤى كبرى من تفاصيل صغرى) يتمثّلها أناس تركوا بصمات واضحة في التاريخ الإنساني، مثل الحكيم الصيني لاو تسو Lao Tze[3] الذي ترك شذرات فلسفية عميقة وبليغة في كتابه (الطاو: إنجيل الحكمة الطاوية في الصين)[4]، أو كالشاعر الهندي «كبير»[5] الذي ترك جُملة من الأشعار التي تنطوي على حكمة إنسانية بالغة الأثر، أو كالحكيم العربي «قس بن ساعدة»[6] الذي ضُرب به المثل لشدّة نباهته وحكمته. أو كالروائي الروسي «ليو تولستوي»[7] الذي انطوت قصصه ورواياته على منزع إنساني عظيم. أو كالسياسي الأفريقي «نيسلون مانديلا»[8] الذي انطوت رحلته لتحرير شعبه على بُعدٍ ملحمي مُلْهِم حتى لِمَن كانوا أعداءه. أو الزعيم الروحي للتيبت «الدلاي لاما»[9] الذي ترك حِكَمَه في كتابه الأثير (الحكمة القديمة والعالَم الحديث). فنصوصهم أو تعاليمهم وإنْ دعت إلى حياةٍ بسيطة على المستوى العملي، مع

ما تستلزمه هذه الحياة البسيطة من طيبة وخيرية، إلا أنّ تجلِّيهَا الواقعي يبقى على المستوى النصيّ أو المعرفي. فالقصة التي وردت في كتاب (التاو تي ـ تشينغ: انجيل الحكمة التاوية في الصين) عن الفلاح الصيني تنقسم إلى قسمين:

«يحكى أن فلاحاً صينياً فقد حصانه الوحيد الذي يساعده في أعمال الحقل. فجاء إليه جيرانه في العشية يواسونه في مصيبته قائلين: أية مصيبة حلت بك! هز الفلاح رأسه قائلاً: ربما، من يدري! في اليوم التالي رجع الحصان إلى صاحبه ومعه ستة جياد برية أدخلها الفلاح إلى حظيرته. فجاء إليه الجيران يهنئونه قائلين: أي خيرٍ أصابك! هز الفلاح رأسه قائلاً: ربما، من يدري! في اليوم الثالث عمد الابن الوحيد للفلاح إلى أحد الجياد البرية فأسرجه عنوة واعتلى صهوته، ولكن الجواد الجموح رماه عن ظهره فوقع أرضاً وكسرت ساقه. فجاء الجيران إلى الفلاح يواسونه قائلين: أية مصيبة حلت بك! فهز الفلاح رأسه قائلاً: ربما، من يدري! في اليوم الرابع جاء ضابط التجنيد في مهمة من الحاكم لسوق شباب القرية إلى الجيش، فأخذ من وجدهم صالحين للخدمة العسكرية وعفَّ عن ابن الفلاح بسبب عجزه. فجاء الجيران إلى الفلاح

يهنئونه قائلين: أي خير أصابك! فهز الفلاح رأسه قائلاً: ربما، من يدري!». [10]

القسم الأول: نصيّ ينطوي على حكمة معنوية بالأحرى، فالكاتب وسيط روحي بين مَنْ مارس الحكمة في الواقع العملي وبين الدفع بالقارئ لأخذ الحكمة النصيّة والاستفادة منها في الواقع العملي أيضًا. بمعنى أنّ الحكمة المعرفية المُشار إليها في النصّ هي حكمة برسم التطبيق الثاني، فقد يكون الحكيم الذي صاغها وكتبها بهذه الطريقة محض وسيط بين التطبيق الأول لها في الواقع العملي على يد الفلاح الصيني، والتطبيق المُستقبلي الثاني لها لأيّ قارئ تروقه القصة وما فيها من حكمة.

القسم الثاني: حكمة مُطبّقة في سياق عملي، فالفلاح الصيني هو من تمثّل الحكمة في الواقع العملي كما روتها القصة. لكن تلك الحكمة لا تنفي تمثّل الحكيم للحكمة في النصّ، فالمعرفة في جانب منها هي نوعٌ من الطوبى المنشودة.

وعليه، فـ تكوين رؤى كبرى (من) تفاصيل صغرى، قد تنتج عن مُراقبة العالَم دون الانغماس فيه، أو دون خوض التجربة، بما يستلزم تحقّقًا للحكمة في الذهن أولًا قبل العمل على ممارستها في الواقع العملي ثانيًا إنْ كان ثمة إرادة بتطبيقها.

واحدة من العادات التي يفترض «شونمبو ماسونو» أنّها تُحقّق حياة بسيطة وطيبة لمن يُطبقّها، كما يُوردها في كتابه (فن الحياة البسيطة)، هي «عدم التركيز على الصواب والخطأ، بل البحث عن الحلول الوسطى»[11] ولتوضيح فكرته يُضيف الكاتب:

«البوذيون لا يفكرون في الأشياء بوصفها سوداء أو بيضاء. بعض الأشياء أبيض، وبعضها أسود، وبينهما درجات مختلفة من الرمادي. هذه الروح ذات العقلية الرحبة راسخة في صميم البوذية، وهذا أحد أسباب تجذرها في اليابان. عرفت اليابان مذهب الشنتو منذ أقدم العصور، وعند نقطة معينة وصلت البوذية من الصين. وبدلا من وضع الشنتو في مواجهة البوذية، فكر اليابانيون أنهم أمام دينين قابلين للتعايش معا. يقضي مفهوم الهونجي سويجاكو الياباني بأن آلهة الشنتو تجليات للأرباب البوذية، ومعا يشكان كلا لا ينفصم مكرسا في المزارات الدينية للشنتو في ما يسمى غونجن. قد يبدو هذا تهربا من الالتزام، لكن هذا بالضبط هو السبب الذي يجعل منه مثالا ممتازا على الحكمة اليابانية. إنها طريقة الجانبين للتعايش، عن طريق الوصول إلى حل وسط وتجنب الصراع. لا يجب أن ننظر الى الاشياء بوصفها صَوَاباً او خطأ، أسود أو أبيض.

بدلا من الانحياز الى جانب ضد آخر، أحيانا يصبح الحل الوسط هو أفضل الطرق».[12]

السؤال: هل يستلزم لكي يتقيد المرء بهذه الحكمة أن يكون الكاتب أو المؤلف قد تقيّد بها وتمثّلها أحسن تمثيل في الواقع العملي؟ أعني لو أراد شخص في مدينة نيويورك أن يتمثّل هذه الحكمة في حياته العملية، هل يشترط أن يكون «شونمبو ماسانو» قد طبّقها في حياته العملية؟ وفي حال لم يُطبّقها هل يُحرّره ـ أعني الشخص الموجود في نيويورك ـ ذلك من تطبيقها؟

ابتداءً، الحكمة مسلك عظيم من مسالك الحريّة الإنسانية، لذا فإنّ أي إكراه لتمثّلها يُفقدها معناها العميق ويُسطّح مسلكياتها في الحياة. بما يجعل من الاشتراط لقبولها من عدمه، بتطبيق كاتبها أو ناقلها أو مُفرّغها في نصٍّ، اشتراطًا يتنافى مع فكرة الحريّة التي يقوم عليها المنزع الإنساني ناحية الحكمة. فأنْ يكون المرء وسطيًا من عدمه فعل غير مشروط بتطبيق هذه الوسطيّة من قبل مَنْ نادى بالوسطيّة أول مرة على المستوى المعرفي. فأنْ نجد شذرةً في شرائع حمورابي تنضح بالحكمة القانونية، أو قطعة في ألواح سومر تحثّ على فعل الخير، أو سطرًا في ملحمة جلجامش تُذكّر المرء بمآلات جسده الفاني، أو بيت شعر لدى طرفة بن العبد مُفعم بالجمال، ولا

يُطبّق كاتب: الحكمة القانونية أو الدعوة إلى فعل الخير أو التذكير بنهايات الإنسان أو الدعوة إلى الجمال، هذه الحكمة أو تلك، لا يقف عثرة في وجه القارئ الذي يُريد تطبيق الحكمة التي تنطوي عليها تلك النصوص في حياته العملية. فالحكمة إذ تتجلّى في نصٍّ معرفي فإنّ التحقّق من تطبيق صاحبها لها من عدمه، قد لا يتأتّى لأغلبية القرّاء نظرًا لعدم إدراكهم له زمنيًا. فنحن الآن، في مطلع الألفية الثالثة، لا تعرف غالبيتنا العظمى إنْ كان «أمية بن أبي الصلت» قد طبّق الحكمة التي تحتوي عليها كثير من أشعاره، وغالبيتنا لا تعرف إنْ كان الحكيم «أيسوب» قد طبّق الحِكَم التي انطوت عليها قصصه الخرافية أم لا، وغالبيتنا لا تعرف إنْ كان الحكيم الروماني «سينيكا» قد أخذ بتعاليمه التي تركها لنا في كتبه أم لا...إلخ. بإزاء هذا التحقّق في معرفة: هل أخذ كاتب الحكمة بحكمته التي صاغها في نصّه أو كتابه أم لم يأخذ، مسألة لا تُؤثّر كثيرًا على قارئ يُريد الأخذ بتلك الحكمة، إلا إذا دخل في مَسَارٍ معرفي آخر وأراد مُحاكمة صاحبها محاكمة أخلاقية.

من ثمَّ، كيف للحكيم أن يصوغ رؤى كبرى (من) تفاصيل صغرى؟

هُنا يقترب الحكيم من الفيسلوف، مع فارق وحيد أن الفيسلوف يُسْهِب ويبسط ويشرح لكي يُوضّح فكرته، لكن الحكيم يميل للاختصار والاختزال، لذا تأتي حكمته على هيئة قصة أو شذرة أو موعظة...إلخ. واقترابه من الفيلسوف هو اقتراب في ملاحظة الأنماط البدئية أو الأسباب القصوى التي يمكن البناء عليها أشياء كثيرة، لكن ليس بغرض تأويل العالَم، بل لغاية إعادة إنتاجه. فلكي يُنتج حكمة أو بالأحرى يصوغها في نصٍّ ما، عليه أن يُلاحظ تكرار حدثٍ ما لفترة طويلة من الزمن، أو أن يروي له أحد ما قصة ما ويُعيد صياغتها على طريقته وتحويلها إلى حكمة صغيرة، شذاراتيّة، تنطوي على رؤية كبرى لثُلاثية الأفكار أو الأشخاص أو الأشياء؛ مجتمعة أو متفرقة.

فالحكمة يُمكن أن تتحقّق في النصّ دون تجربة يخوضها الحكيم أو مُنصِّص الحكمة في شذرة أو مقطوعة أو بيت شعر أو قصة دالّة. أو يمكن للحكيم أن يصوغ رؤية كبرى تُختزل وتختصر في شذرة أو قصة، دون أن يتمثّل تلك الحكمة في الواقع العملي. لكن ذلك لا ينفي أيضًا تمثّله لها، فصياغته لنصٍّ مثل الذي صاغه «شونميو ماسونو» عن الوسطية، أو الذي صاغه «لاو تسو» أيضًا ويُعزّز نهج الوسطية:

«في السكن، ما يهم هو الحيز الذي يسد حاجتك.

في صفات العقل، ما يهم هو العمق.

في صلات الصداقة، ما يهم هو المودة.

في الكلام، ما يهم هو الصدق.

في الحكم، ما يهم هو النظام.

في الشغل، ما يهم هو البراعة.

في التنفيذ، ما يهم هو التوقيت». [13]

قد يكون ناتجًا عن تجربة خاصة بالكاتب نفسه. لأن صياغة أمر عن أواسط الأشياء والنظر إليها بعين مُتعدّدة الزوايا بحاجةٍ إلى جهد عظيم قد لا يتأتَّى إلا لقلة من الناس. فالتوصّل إلى معمارٍ هائل بحاجةٍ إلى لبنات صغيرة تُصفّ برويةٍ وأناةٍ وإتقان عالٍ، لكي يخرج المعمار بطريقة لافتة ومُبدعة. فالوصول إلى نتيجةٍ حكيمة حول:

1- السكن. 2- العقل. 3- الصداقة. 4- الكلام. 5- الحُكم. 6- الشغل. 7- التنفيذ.

مع ما يُرافق هذه النتيجة من قناعة قصوى بـ:

1- الاكتفاء بما يسدّ الحاجة فيما يتعلق بالسكن.

2- العُمق فيما يتعلق بالعقل.

3- المودة فيما يتعلق بالصداقة.

4- الصدق فيما يتعلق بالكلام.

5- النظام فيما يتعلق بالحُكم.

6- البراعة فيما يتعلق بالشغل.

7- التوقيت فيما يتعلق بالتنفيذ.

هو تمرين شخصي على الحياة مرّت بأطوار مختلفة حتى استطاع الكاتب الوصول إلى تلك الخُلاصات وتحويلها إلى نوع من الخلاص الفردي، حتى مع عدم أخذه بها في الواقع العملي، فطالما هي نُسبت إليه أو جسّدت شخصيته الاعتبارية فهي بمثابة الخلاص الفردي له، فآخر تجلٍّ له ـ ولو في عالَم الطوبى ـ ينطوي على حكمة بالغة الدقّة والذكاء. مع التأشير أنّ هذا الخلاص الفردي لا يحمل في جعبته أي مسلك إكراهي أو استلابي، بحيث يتحوّل إلى سيف مُسَلَّطٍ على رقاب العباد. فَمَن أراد الأخذ بحِكَم «لاو تسو» السابقة ـ أو أي حكم لأي حكيم مرّ على وجه الأرض ـ أخذ، ومن أراد تركها تركها. فهي حِكم ـ طالما أنها لا تنطوي على أي إكراه أو استلاب ـ ناعمة، حريرية.

وعليه، فـ تكوين رؤى كبرى (من) تفاصيل صغرى، مرتبط بطريقة أو بأخرى بالمعرفة. فالحكيم إذ يسعى إلى تكوين رؤى كبرى فإنّه يسعى إلى تجميع نُتف صغيرة وعلى زمن طويل لكي يستطيع صياغتها في نصٍّ ينطوي على حكمة بالغة الأثـر. مـع التجـاوز ـ طالما أننا بصدد حكمة ما ـ عن إمكان تمثّل الحكيم لتلك الحكمة في حياته العملية أم لا. فطالما أنه أرَّخَ لحكمةٍ ما فإنها ـ مرحلة ما بعد القراءة ـ بصدد القارئ، فهو إما أن يُنهيها لحظة القراءة ولا يأخذ بها إلا لناحية التسلية والمتعة القرائية، أو يتمثّلها في حياته فيبقى فعل قراءتها ماثلًا في حياته بشكل دائم. فإذا كان الحكيم قد نطق بحكمةٍ وسطّرها في نصٍّ ما، مع تمثُّل لتلك الحكمة عبر تجربة شخصية، فذلك يزيد من رصيده الأخلاقي. أما إذا نطق الحكيم بحكمةٍ وسطّرها في نصٍّ ما، عبر استوحاء تلك الحكمة من تجارب الآخرين عبر مراقبتها لفترة طويلة وتبصّر مكوناتها وصولًا إلى لحظتها الأخيرة، أعني إلى لحظة صياغتها في النصّ فذلك مما يزيد من رصيده المعرفي. أما إذا نطق بالحكمة وسطّرها في نصٍّ ما، عبر إعادة صياغة وتكثيف مُبْدِع لقصة قُصّت عليه فذلك يزيد من رصيده الإبداعي.

مرة أخرى، التفلسف ـ وفقًا لأطروحة هذا الكتاب ـ ينسجم مع مقولتي:

تكوين رؤى كبرى (من) تفاصيل صغرى، وتكوين رؤى كبرى (عن) تفاصيل صغرى.

الأولى (تكوين رؤى كبرى من تفاصيل صغرى) تصدر عن إنسان مُشتغل بالمعرفة. أما (تكوين رؤى كبرى عن تفاصيل صغرى) فإنها تصدر عن إنسان مشغول بالوجود.

الأولى فصّلت لها آنفًا، أما الثانية فإنها مُرتبطة بالتحقّق في التجربة أساسًا. لذا فإنَّ أبطالها أو حكماءها منسيون في التاريخ، متوارون عن الأبصار والبصائر، إلا من أُرِّخَتْ قصته أو حكمته على يد حكيم مُشتغل بالمعرفة. أبطال خارقون لما هو مُعتاد بشريًا، لكن بصفات عادية، عفوية وإنسانية. فهم إذ يمارسون حكمتهم فإنهم يُمارسونها بصفتها جزءًا من سيرورة حياتهم، ويحدث أن نتعرف عنهم ساعة نقرأ عنهم أو نُشاهد عنهم أفلامًا أو وثائقيات أو تُسعفنا بصائرنا فنلمحهم ونحن على قيد الحياة. فقصة الفلاح الصيني ـ المذكورة آنفًا ـ كان يمكن أن تبقى طيّ الكتمان لو لم نقرأها في كتاب الطاو، وكان يمكن لكثير من الحيوات التي عاشها أصحابها أو مارسوها بعفوية كاملة أن تبقى طيّ الكتمان ولا يستفيد منها أحد إلا ذويهم أو من يتواصلون معهم إن انتبهوا

إليها في الوقت المناسب. فقصة مثل قصة خالي «إبراهيم الموسى» التي أشرتُ فيها إلى أنه كان يُراقب حماره لسنواتٍ طويلة لكي يعرف أنواع الأعشاب التي يُفضّلها، فيأخذه دائمًا إلى المناطق التي تتواجد بها تلك الأعشاب؛ كانت تُروى ـ من جهة ـ على نطاق ضيّق داخل العائلة الصغيرة، ومن جهة ثانية كانت تُروى للتسلية والضحك على سلوك خالي، إذ كيف لإنسان أن يهتم كل هذا الاهتمام بحمار؟ وبطبيعة الحال لم استوعب الحكمة الهائلة في قصة خالي البسيطة إلا منذ سنوات قليلة، فخالي «إبراهيم الموسى» مثله مثل ملايين الناس البسطاء الذين لم تُؤرّخ قصصهم وحكمهم لعدم تفهّم حقائقها العميقة ومسلكياتها الهائلة في الوقت المناسب. فالحكمة تبدو مُتفلتة وعصيّة على عقولنا التي تقضي جلّ حياتها مشغولة بالمعيش اليومي، وفي اللحظات الأخيرة تنتبه إلى عُمق التفاصيل الصغيرة، لذا تلجأ إلى الترميم وإصلاح الأعطاب لكن ـ ياللحسرة ـ بعد فوات الأوان. مما يجعل من الحكمة ـ خارج مُمارسة صاحبها الأصلي لها ـ برسم المستقبل على الدوام حتى تُصاغ وتُكتب ويأتي شخص ما يقرأ هذه الصياغة ويستفيد منها إن أراد. فخالي «إبراهيم الموسى» لم يكن يكتفي بمراقبة حماره لسنوات طويلة، بل كان يُنظّف أرضه من جميع الأعشاب الضارة

ويُعزّلها من الحجارة الصغيرة، حتى ليخجل المرء من الدخول إلى أرضه وهو يلبس الحذاء لكثرة نظافة الأرض وبداعة منظرها. يخلع حذاءه ويدخل وكأنه يدخل إلى حرم مهيب، يُبادله العطاء من الصباحات الباكرة إلى غسق الشمس. تمنحه الأرض بركتها ونعمتها وطمأنينتها، ويمنحها بالمقابل عنايته ورعايته وانتماءه. لكن المفارقة أن هذا السلوك لم يكن سلوكًا يمر عبر وسيط معرفي، فالعقل لا يقوم بعملية مُعالجة لمادة العالَم ومن ثم يُطلق عليها حُكمًا وفقًا لآلية المعالجة، بل كان سلوك خالي تجاه حماره أو أرضه أو حتى علاقاته بالناس سلوكًا مباشرًا بما هو إنسان مُنشغل بالوجود، أكثر منه إنسانًا مُشتغلًا بالمعرفة. فانشغال الإنسان بمعيشه اليومي يجعله لا يهتم بـ تكوين رؤى كبرى (عن) تفاصيل صغرى. فهذا التكوين بما هو نشاط وجودي ضاجّ بالتقصيّ عن صُغريات العالَم لتحويلها إلى كُبريات في الذات، يتحوّل إلى نشاط مُضنٍ وعسير أمام تلك الانشغالات. فهي حجاب كبير، يجعل من الحكمة عزيزة ومنيعة إلا على قلّة قليلة في العالَم، ولا ينتبه إليها الناس إلا في وقتٍ لاحق أو بعد فوات الأوان.

وحتى مع فعل:

1- التأريخ لحكمةٍ ما في نصٍّ ما.

2- قراءة هذا التأريخ من قبل قارئ ما.

تبقى الحكمة عزيزة، فالإنسان ميّال بطبيعته إلى انشغالاته اليومية من مأكل ومشرب...إلخ، بما يجعل التفاصيل الصغيرة، القطع الميكروبية Micro الموجودة في العالَم واللازمة لتشكيل لوحة ماكروبية Macro في الذات تغيب عن الإنسان، ومعها تغيب الحكمة. بل الآكد ثمة شغف إنساني بالإبقاء على الحكمة عزيزة وبعيدة المنال، لكي يبقى الإنسان يُطاول مثاليته في عالَم المعقولات وليس في عالَم الماديات. فهو إذ يقرأ ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ عن:

1- ضرورة القراءة للآخرين قبل الكتابة لهم.

2- مُراقبة السُمّ الذي يُنقّط من الفم قبل تعييب عسل الآخرين.

3- التأكّد من نظافة الملابس الداخلية قبل التحدّث عن قذارة ملابس الآخرين.

4- التواضع ساعة المُجاهرة بمعارف الذات.

5- الشعور بألم الآخرين كما السعادة بأفراح الذات.

6- التدرّب على نقد المعارف والتوقّف عن الاستهزاء بها.

7- المُجاهرة بالمحبّة ومُكافحة الكراهية.

8- البصر بوابة البصيرة، نظافته من نظافتها.

9- المُصافحة الجسدية والمُصارحة العقلية والمُسامحة القلبية، تلك نواميس المُصالحة الإنسانية.

10- تأديّة الواجبات قبل المُطالبة بالحقوق.

فإنه قد يقرأ ولا يُطبّق شيئًا من ذلك، رغم إيمانه العميق بذلك، إلا أنه يُبقي على إيمانه هذا في عالَم المعقولات، بما يجعل من الحكمة عزيزة أكثر في عالَم الماديات والمحسوسات. لما يحتاجه الانتقال من عالَم المعقولات إلى عالَم الماديات إلى جهدٍ عظيم يستسهله الإنسان على المستوى الذهني ويستصعبه على المستوى التطبيقي.

فما معنى:

1- أن يقرأ المرء للآخرين قبل أن يكتب لهم؟

معنى مزدوج: معنى معرفي لناحية التحضير لفعل الكتابة عبر بذل أقصى جهد قرائي، لكي يُلمّ الكاتب بشكل احترافي بموضوعته التي يتناولها في كتابه أو نصّه أو روايته أو قصيدته. ومعنى أخلاقي لناحية التدرّب الدائم على الإنصات لوجهات

نظر الآخرين والتعامل معهم كشركاء في إنتاج المعرفة وما تفضي إليه من تفعيل للنشاط الحضاري.

وما معنى:

2- أن يُراقب المرء السُمّ الذي يُنقّط من فمه قبل أن يُعيب عسل الآخرين؟

تمرين لتتبّع عيوب الذات وتصليح أعطابها بشكلٍ دائم.

وما معنى:

3- التأكّد من نظافة الملابس الداخلية للذات قبل التحدّث عن قذارة ملابس الآخرين؟

التوفيق السليم بين الجوهر والمظهر، أو بين ما يُبطن المرء وما يُظْهِر.

وما معنى:

4- أن يتواضع المرء وهو يُجاهر بمعارفه؟

ترشيد العقل من ناحيتين: الأولى داخلية، فكلما زادت معارف الإنسان الجزئية قلّت معارفه الكُليّة. والثانية خارجية، مُتعلقة بالحقيقة فهي مناط البشرية على اتسّاعها وغير محصورة في معارف

الذات. ترشيد العقل في المرة الأولى تجعل منه متواضعًا ومُدركًا لحدوده العقلية، وترشيده في المرة الثانية تحميه من الأمراض النفسية التي يُتقنها المهلوسون.

وما معنى:

5- أن يشعر المرء بآلام الآخرين كما يُسعد بأفراحه؟

لغايتين: الأولى مُتعلقة بفكرة العدالة وإحقاقها في هذا العالَم. فكما يُمكن أن تُسْعَد بآلام الاخرين، سيأتي الوقت ويُسعدون فيه بآلامك. فمبادلتهم الحالة الوجدانية شيء ضروري في مسيرة العدالة الإنسانية. والثانية مُتعلقة بالنقلة النوعية التي ينتقلها المرء مع هكذا شعور، فهم شُركاء له، وليسوا خصماء.

وما معنى:

6- أن يتدرب المرء على نقد المعارف وعدم الاستهزاء بها؟

أن ينتقل من مرحلة الكائن السيكولوجي الذي تُحرّكه غرائزه واندفاعاته غير العاقلة، إلى مرحلة الكائن الإبيستمولوجي الذي تُحرّكه مَلَكاته المتطورة العقلية المتطورة.

وما معنى:

7- أن يُجاهِر المرء بمحبّته ويُكافح كراهيته؟

الارتقاء من المقولة الفلسفية: «الإنسان حيوان عاقل» إلى المقولة الأنطولوجية: الإنسان كائن رحيم.

وما معنى:

8- أن يتحوّل البصر إلى بوابة للبصيرة؟

الارتقاء من مرحلة الإنسان الغرائزي إلى مرحلة الإنسان الجمالي.

وما معنى:

9- أن يُصافح المرء أجساد الآخرين ويُصارح عقولهم ويُسامح قلوبهم؟

بناء ثلاث مدونات كبيرة: أ-مدونة جمالية. ب- مدونة معرفية. ج- مدونة أخلاقية. الأولى تُوسّع دائرة الجميل وتُضيّق في الوقت ذاته دائرة القبيح. والثانية تحوّل الخلافات المُدمّرة إلى اختلافات مُثمرة. والثالثة تُوسّع دائرة الرحمة إلى حدودها القصوى وَتُضَيِّقُ في الوقت ذاته دائرة الأحقاد والكراهيات إلى حدودها القصوى أيضًا.

وما معنى:

10- أن يُؤدّي المرء واجباته قبل أن يُطالب بحقوقه؟

أن يُبادر ويخطو الخطوة الأولى ـ قبل الكُلّ ـ لتحقيق كل ما سبق.

والمعنى الجامع لهاتِهِ العشرة، وغيرها ـ أعني لأيّ حكمة أخرى ـ هو الانتقال بها من عالَم المعقولات إلى عالَم الماديات، ففي نهاية المطاف لا يمكن للإنسان أن يختبر مثالياته في عالم الطوبى، بل لا بُدّ من تحقّق ذلك على أرض الواقع، حتى لو انطوى على اختبار كبير وطويل لقدرة الإنسان على الثبات والصمود. فالتحقّق النهائي في الحكمة بما هي مطمح إنساني عظيم؛ تمرين أنطولوجي طويل لم يصمد إلى نهاية مضماره عبر التاريخ كُلّه إلا القلّة القليلة. بما يجعل من الحكيم أكثر ندرة من الفيسلوف، كما الفيلسوف أكثر ندرة من الإنسان الفيلسوف، والإنسان الفيلسوف أكثر ندرة من الطفل بما هو أقل من الفيلسوف. فالندرة عمل شاق تتطلب جهدًا جبّارًا لكي تبقى ويُحافظ عليها.

إذًا، التفلسف وفقًا لأطروحة الحكيم بما هو أكثر من فيلسوف، ينقسم إلى قسمين:

الأول: تكوين رؤى كبرى (من) تفاصيل صغرى. والثاني: تكوين رؤى كبرى (عن) تفاصيل صغرى.

الأول معمار كبير يُبنى من حجارة صغيرة. والثاني معمار كبير على هيئة حجارة صغيرة.

الأول معمار يبنيه إنسان مشتغل بالمعرفة. والثاني معمار يبنيه إنسان مُنشغل بالوجود.

الأول حكمة في عالَم المعقولات لن تُثمر إلا بنقلها إلى عالَم الماديات. والثاني حكمة في عالَم الماديات لن تأتي أُكلها إلا ساعة تثبيتها في عالَم المعقولات.

مع ما تستلزمه عملية:

1- إثمار الحكمة في عالَم الماديات.

2- التثبيت في عالَم المعقولات.

من جهد كبير وصبر طويل، لكي تتحوّل الحكمة إلى مسار بسيط، عفوي، شفّاف في حياة الإنسان.

هوامش الفصل الرابع:

1- يمكن مراجعة في مديح التفلسف.

2- أشرتُ في باب (في مديح التفلسف) إلى هذا الكتاب.

3- يمكن مراجعة الهامش 11 من هوامش المقدمة.

4- لكتاب (الطاو: تي تشينغ: انجيل الحكمة الطاوية في الصين) أكثر من ترجمة للغة العربية من ضمنها ترجمة للأستاذ «هادي العلوي»، لكنني اعتمدت في الاقتباسات اللاحقة الواردة في هذا الكتاب من كتاب الطاو على الترجمة التي أنجزها الأستاذ «فراس السوّاح».

5- عندما مات الشاعر الهندي «كبير» [1440م – 1516م] حدث خلاف بين المسلمين والهندوس على جثته، فقد أدعّى المسلمون أن من واجبهم دفنه في مقابرهم، فـ«كبير» كان مُسلماً، ولا يمكنهم بحالٍ من الأحوال التخلّي عنه في لحظة الوجود الحرجة؛ وأدعّى الهندوس أن من واجبهم حرق جثته فـ«كبير» كان هندوسيًا، ولا يمكنهم التفريط بإرثه. عندما احتدم الخلاف الهُوياتي بينهم أصاب المسلمون والهندوس سِنة من نوم، وعندما استيقظوا، وجدوا تابوت الشاعر قد امتلأ بالورود؛ فأخذ المسلمون نصف تلك الورود ودفنوها، وأخذ الهندوس النصف المتبقي من تلك الورود وأحرقوها.

يمكن الاطلاع على بعض قصائد الشاعر كبير على الموقع التالي:

blog-post_21./12/https://salmaghari.blogspot.com/2013
html

كما يمكن التعرّف عليه من خلال الفيلم الوثائقي عنه على الرابط التالي:

https://www.youtube.com/watch?v=hxsvejXYj2s&t=32s

6- للتعرّف بشكلٍ مُفصّل على قس بن ساعدة، يمكن الرجوع إلى كتاب (قس بن ساعدة الأيادي: حياته. خطبه. شعره) من تأليف الدكتور أحمد الربيعي الصادر في بغداد سنة 1974.

7- ولد الروائي الروسي ليو تولستوي في العام 1828 وتوفي في العام 1910، يُعتبر أحد أهم الروائيين في العالَم كله. شكلُت رواياته نقطة مفصلية في تاريخ الرواية العالمية. اشْتُهر أكثر ما اشْتُهر بروايتيه: (الحرب والسلم) و(آنا كارنينا). من أعماله بالغة الأهمية أيضًا: رواية (سوناتة لكروتزر) و(الحاج مراد) و(البعث).

للمزيد حول تولتسوي: يمكن الرجوع إلى كتاب (تولستوي: الرجل والروائي والقديس) من تأليف «هنري ترويا».

8-: يعتبر نيلسون مانديلا الذي ولد سنة 1918 وتوفي سنة 2013 من أشهر المناضلين في القرن العشرين ضد سياسة الفصل العنصري التي اتبعتها السلطة الاستعمارية البريطانية في جنوب أفريقيا. سُجن لفترة طويلة لكنه تمكّن في النهاية من تسلم منصب الرئيس لجنوب أفريقيا. للتعرّف أكثر على مسيرة حياته يمكن الرجوع إلى مذكراته الموسومة بـ(مسيرة

طويلة نحو الحرية) الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام 2010 من إنجاز فاطمة نصر.

9- ثمة صورة فوتوغرافية تتداولها وسائل الإعلام العالمية للدلاي لاما [الصورة ذاتها تظهر على غلاف الطبعة العربية من كتابه] يظهر فيها وهو مُنحنٍ قليلًا ورافعًا يده اليسرى وباسطًا كفّها ناحية وجهه -كما لو كان رسولًا انتهى للتوّ من الإنباء برسالته الخالدة إلى أتباعه ومريديه-، فيما يظهر على مُحيّاه نوع من الامتنان لِمَن كان ينظر إليهم لحظة التقاط الصورة، كما لو أنه قد امتلأ بمحبتهم التي فاضت منهم، فحلّت فيه.

هذه الصورة هي أكبر تعبير عن كتاب (الحكمة القديمة والعالم الحديث) لـ «الدلاي لاما»، فهو شخص تبدو عليه ملامح إنسان انبثق للتوّ من نصّ ديني قديم، فوجد نفسه بين ناطحات السحاب والشوارع المضاءة وأشعة الليزر والهواتف الذكية ومواقع التواصل الاجتماعي والشاشات المُسطحّة ونظرية الكوانتم، والخرائط الجينية والمركبات الفضائية. ولكي يُداري هذه الوحشة الأنطولوجية، يعمل «الدلاي لاما» على صهر خُلاصته الدينية القديمة في نوع من الخلاص المعرفي الحداثوي، لذا نراه قد تجاوز محنة اللاهوت الذي يسعى إلى تبيان حسنة دين بعينه على حساب الأديان الأخرى، وينتقل -من ثمّ- إلى الحكمة الإنسانية التي يمكن استشراف مبانيها ومعانيها من العالم القديم وأديانه المختلفة، والعالم الحديث وعلومه الحديثة، شريطة أن تنسجم هذه الحكمة مع

الرؤية الأخلاقية التي لا تخضع الإنسان لإكراهات أو استلابات من شأنها الحطّ من قيمتيه: المادية والمعنوية.

للتعرّف بشكلٍ مُوسّع على الدلاي لاما يمكن الرجوع إلى كتابٍ: (الحكمة القديمة والعالَم الحديث) من تأليف الدلاي لاما نفسه، الصادر عن دار دال في دمشق بإنجاز من راغدة خوري في العام 2015.

(طريق الحكمة، طريق السلام: كيف يفكّر الدلاي لاما؟) من تأليف «فيبزيتاس فون شونبورن»، الصادر عن دار المدى في دمشق في العام 2018 وبإنجاز من لطفية الدليمي.

10- لاو تسو، كتاب التاو: انجيل الحكمة التاوية، ترجمة وشرح وتعليق فراس السواح، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ط1، 1998، ص 9.

11- شونميو ماسونو، فن الحياة البسيطة، ترجمة إيهاب عبد الحميد، منشورات الرمل، مصر، دار التنوير، بيروت، ط1، 2019، ص 158 بالتصرّف.

12- المرجع السابق، ص 159.

13- لاو تسو، كتاب التاو: انجيل الحكمة التاوية، مرجع سابق، ص 42.

خاتمة

كتابي هذا (الإنسان الفيلسوف: عن أسئلة الأطفال وإجابات الحكماء) على هيئة مصفوفة مُكوّنة من أربعة عناصر:

1- الطفل بما هو أقل من فيلسوف.

2- الإنسان الفيلسوف.

3- الفيلسوف.

4- الحكيم بما هو أكثر من فيلسوف.

بما تُشكّل معًا مشروع التفلسف الإنساني، الذي يحتاج لكي ينبثق إلى العالَم إلى التوافر على سُباعية:

1- الأسرة.

2- المدرسة.

3- المجتمع.

4- القرار السياسي.

5- الثقة النفسية.

6- القوة المعرفية.

7- الإمكان الإبداعي.

لغاية مُناقشة ومُساجلة ومُحاججة وتأويل وإنتاج سُداسية:

1- الإله.

2- الإنسان.

3- العالَم.

4- الأفكار.

5- الأشخاص.

6- الأشياء.

بما يجعل من ولادة الإنسان ولادة واعية في الزمن، ولادة مُثمرة وفاعلة بشكلٍ دائم وفاعل.

قائمة المراجع:

تتضمن هذه القائمة على مجموعتين من الكُتب:

الأولى وردت في سياق هذا الكتاب، إذ تمت الإحالة إليها بطريقةٍ أو بأخرى في متن هذا الكتاب.

الثانية تُساهم في مشروع التفلسف الإنساني أو تعزّز موجوديته، وتدفع باتجاه تنشيط الدورة العقلية.

القائمة الأولى، وهي مُرتبة بحسب ظهورها في الكتاب ابتداءً من فصل (في مديح التفلسف) وصولًا إلى الفصل الأخير (الحكيم بما هو أكثر من فيلسوف):

1- القبيلة والنص: تحولات البداوة في الرواية العربية، ربيع ربيع.

2- الذاكرة لا تعشق، ربيع ربيع.

3- الفلاسفة والحب، ماري لومونييه وأود لانسولان.

4- في سبيل حوار الحضارات، روجيه غارودي.

5- العالم من خلال قلوبهم، ليندا فون كيزرلينك.

6- دروس في الفلسفة الوضعية، أوغست كونت.

7- فن الحياة البسيطة، شونميو ماسونو.

8- انحراف حاد، أشرف الخمايسي.

9- المعجم الفلسفي، جمال صليبي.

10- الموسوعة الفلسفية، فردريك كوبلستون.
11- موسوعة (تاريخ الفلسفة)، إميل برهييه.
12- تحقيق في الذهن البشري، ديفيد هيوم.
13- التاريخ الطبيعي للدين، ديفيد هيوم.
14- رسالة في الطبيعة البشرية، ديفيد هيوم.
15- العقل والمادة: بحث فلسفي، ماريو بونجي.
16- عالم صوفي، جاستن غاردر.
17- أسئلة وتساؤلات، جاستن غاردر.
18- فتاة البرتقال، جاستن غاردر.
19- قصة الفلسفة، ول ديورانت.
20- مقال في المنهج، رينيه ديكارت.
21- التأملات في الفلسفة الأولى، رينيه ديكارت.
22- انفعالات النفس، رينيه ديكارت.
23- علم الأخلاق، باروخ أسبينوزا.
24- رسالة في اللاهوت والسياسة، باروخ أسبينوزا.
25- التاو: انجيل الحكمة التاوية في الصين، لاو تسو.
26- الجمهورية، أفلاطون.
27- آراء أهل المدينة الفاضلة ومضاداتها، أبو نصر الفارابي.

28- نقد العقل المحض/ نقد العقل العملي، نقد مَلَكة الحكم، إيمانويل كانط.

29- البراغماتية، وليم جيمس.

30- علم النفس التطوري، ديفيد باس.

31- التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور.

32- العاقل: تاريخ مختصر للنوع البشري، يوفال نوح هراري.

33- أعظم استعراض فوق الأرض، ريتشارد دوكنز.

34- كون من لا شيء، لورانس كراوس.

35- الجين: تاريخ حميم، سيدهارتا موكرجي.

36- سيكولوجيا الذكاء، جان بياجييه.

37- التطور المعرفي عند جان بياجييه، موريس شربل.

38- الخيال السيوسيولوجي، رايت ميلز.

39- كوبرنيكوس وداروين وفرويد: ثورات في تاريخ وفلسفة العلم، فريدل فاينرت.

40- في الحكم المدني، جون لوك.

41- رسالة في التسامح، جون لوك.

42- آن الجملونات الخضراء، لوسي مود مونتغمري.

43- سرنامة: وقائع احتفال رسمي، عزيز نيسين.

44- المغالطات المنطقية، عادل مصطفى.

45- حياتي، إيزادورا دونكان.
46- أولاد حارتنا، نجيب محفوظ.
47- ملحمة الحرافيش، نجيب محفوظ.
48- بين القصرين/ قصر الشوق/ السكرية، نجيب محفوظ.
49- تنبأ أيها الأعمى، أدونيس.
50- الفلسفة التحليلية: ماهيتها، مصادرها، ومفكروها، أحمد عبد الحليم عطية.
51- قس بن ساعدة الأيادي: حياته. خطبه. شعره، أحمد الربيعي.
52- الحرب والسلم، تولستوي.
53- آنا كارنينا/ تولستوي.
54- البعث/ تولستوي.
55- سوناتة لكروتزر، تولستوي.
56- مسيرة طويلة نحو الحرية، نيلسون مانديلا.
57- الحكمة القديمة والعالم الحديث، الدلاي لاما.
58- طريق الحكمة، طريق السلام: كيف يفكّر الدلاي لاما؟، فييزيتاس فون شونبورن.

القائمة الثانية، وهي قائمة تحضّ على التفكير وتعزيز خيار التفلسف لدى الإنسان عمومًا، وهي قابلة للزيادة على الدوام:

1- الطفولة في التاريخ العالمي، بيتر ن. ستيرنز.

2- بالتأكيد نعم أو ربما لا، ليزا هاجلوند/ أندرس ج.برسون.

3- أن تفكر بعمق، ليزا هاجلوند.

4- توم سوير، مارك توين.

5- مغامرات هكلبري فن، مارك توين.

6- أليس في بلاد العجائب، لويس كارول.

7- الأمير الصغير، انطوان دو سانت أكزوبيري.

8- حكايات أيسوب.

9- كليلة ودمنة، ابن المقفع.

10- المدخل إلى الفلسفة، أزفلد كولبه.

11- الدروس الأولى في الفلسفة، فردريك لوييز.

12- التفكير فلسفياً: مدخل إلى المناظرات الفلسفية الكبرى، ديفيد روتشنك.

13- عزاءات الفلسفة، آلان دو بوتون.

14- عزاء الفلسفة، بوئثيوس.

15- تشكيل العقل الحديث، كرين برينتون.

16- تكوين العقل الحديث، جون هرمان راندل.

17- المقدمة، ابن خلدون.
18- 111 فضيلة، 111 نقيصة: عرض فلسفي، مارتين زيل.
19- مشكلات الفلسفة، برتراند راسل.
20- تفكّر: مدخل أخذا إلى الفلسفة، سايمن بلاكبرن.
21- الهندي المولع بالحجاج: كتابات عن تاريخ الهند وثقافتها وهويتها. آمارتيا سن.
22- الموسوعة الفلسفة المختصرة، جوناثان ري، وج.أو. أرمسون.
23- الموسوعة الفلسفية، م.زونتال، ب.يودين.
24- تاريخ التسامح في عصر الإصلاح، جوزيف لوكلير.
25- الإشارات الإلهية، أبي حيان التوحيدي.
26- مباهج الفلسفة، ول ديورانت.
27- التنوير الاتي من الشرق، جي.جي. كلارك.
28- البوشيدو: روح اليابان، إينازو نيتوبي.
29- الإنسان بين المظهر والجوهر، إريك فروم.
30- التصوف والفلسفة، ولتر ستيس.
31- الفكر الشرقي القديم، جون كولر.
32- الفلسفة: موضوعات مفتاحية، جوليان باجيني.
33- مشروع نقد العقل العربي، محمد عابد الجابري.
34- مشروع نقد العقل العربي، جورج طرابيشي.

35- لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة، مايكل كاريذرس.
36- العبقرية والإبداع والقيادة، دين كيث سايمنتن.
37- أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو، هنري برونان.
38- فلسفة الزن: رحلة في عالم الحكمة، جان لوك تولا ـ بريس.
39- مدخل إلى الفلسفة، إبراهيم يوسف النجار.
40- دعونا نتفلسف: كيف استطاع 25 مفكرا تغيير حياتنا، علي حسين.
41- حي بن يقظان، ابن طفيل.
42- السيد إبراهيم وأزهار القرآن، إريك إيمانويل شميدت.
43- الفن، كلايف بل.
44- الإحساس بالجمال، جورج سانتيانا.
45- مصائر الفلسفة بين المسيحية والإسلام، جورج طرابيشي.
46- فلسفة الحياة اليومية، فتحي التريكي.
47- قيم من التراث، زكي نجيب محمود.
48- جماليات المكان، غاستون باشلار.
49- تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم.
50- الفلسفة: أنواعها ومشكلاتها، هنتر ميد.
51- البناء المنطقي للعالم، رودلف كارناب.
52- حكمة الغرب، برتراند راسل.
53- أطلس الفلسفة، بيتر كونزمان، فرانز بيتر بوركارد، فرانز فيدمان.



خمس سلاسل للنشر، متطورة وعصرية، تطلقها وزارة الثقافة الأردنية، تسد النقص في المكتبة المحلية والعربية، منشورات مهمة في حقول معرفية مختلفة، فجاءت سلسلة فكر ومعرفة التي تسعى إلى خلق الوعي والإدراك وتنمية التفكير وفهم الحقائق وسياقات التاريخ والحياة، وتفسير النتائج والتجربة الإنسانية، وخلق التأمل الفلسفي ضمن آليات المنطق والتحليل العلمي. وسلسلة الفلسفة للشباب بهدف تشجيع الأجيال الجديدة للإفادة من مناهج الفلسفة في فهم العالم المعاصر، وتوعية الرأي العام بأهمية الفلسفة، واستخدامها نقديا لمعالجة طروحات العولمة وعصر الحداثة. وسلسلة الكتاب الأول التي تُعنى بنشر الكتاب الأول للمؤلفين؛ كباكورة لأعمالهم المستقبلية، مع مراعاة الإبداعية والشروط الكتابية الناضجة. وسلسلة سرد وشعر التي تُعنى بالكتابات الشعرية والسردية المهمة، المغايرة والمختلفة في الطرح والشكل، ذات الجودة والمكانة في تحقيق إضافة نوعية للمكتبة المحلية والعربية. وسلسلة شغف، تختص بالمخطوطات الموجهة للطفل، شعراً ونثراً، تراعي حاجات الطفل الفكرية والنفسية والوجدانية، وتحقق شروطها الفنية والجمالية والإبداعية.





هاتف: 5696218 962 + فاكس: 5691640 962 + ص.ب: 6140 عمّان - الأردن
E-mail:info@culture.gov.jo website:www.culture.gov.jo

هذا الكتاب متوفر على منصة الكتبا الإلكترونية
https://alkutba.gov.jo